عراف السيدة الأولى

روايـــــــة

محمد القصبى

المؤلف : محمد القصبى
الكتاب : عراف السيدة الأولى
الناشر : نادى القصة
الطبعة الأولى : ٢٠٠١ م
رقم الإيداع : ٨١٩٧/ ٢٠٠١

نادى القصة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩


الكتاب
الفضى
نادى القصة

إلـــــــى

السيدة ....

شطري الملائكي .. !!

(١)

من أجل من تطرق السيدة الأولى باب كبير العرافين..؟!

تخونها قواها حين باغتها السؤال... تفر منه فزعة ليتلقفها تيه ليل يهتك بكارة سكونه عواء الذئاب. ونذر أعاصير بطونها نهمة للمحرمات.

وفى البدايات كانت تهز رأسها كلما داهمها ذات السؤال.. وتجيب بصوت عال: من أجل الشعب أطرق باب كبير العرافين..!! فيتوسد الضمير شعورا بالإطمئنان سرعان ما يهتز أمام صيحة الرئيس.

ـ مصائر الشعوب لا ترسمها أدخنة مباخر العرافين!!

ـ لكن منذر عبد المهيمن ليس عرافا بمبخرة!!

فيهز رأسه إرتيابا...

ورغم ذلك كانت تطرق باب كبير العرافين وظهرها ينوء بأحلام وهموم الوطن.

لكن ضلوعها الآن تئز قلقا على الزوج والإبن... وعواء الذئاب يخترق أسوار قصر الرئاسة منذرا بدنو الإعصار. ألهذا تعاود طرق باب العراف الأول بعد انقطاع أكثر من عام..؟!

صباح اليوم رآها الشعب على شاشة التلفاز تخفق في الحجر على دمعة إندفعت من مآقيها.. وأطفال المدرسة يغنون للوطن الأكبر فى براءة مشحونة بكبرياء غامض يتجاوز طاقة معلم الموسيقى على التعليم... ومثلها فشل مدير المدرسة ومعلموها فى قمع دموعهم التي سالت من عيون تزأر بهدير مشاعر نقية من آفة الرياء.. ذلك يقين يوحدها مع الناس تكابد ليظل ساطعا فى الرأس فلا تجفل إن باغتها ذلك السؤال الوحشى: من أجل من تطرق باب كبير العرافين؟! وربما واتتها الجرأة.. مثلما كان

حالها في البدايات لتهز رأسها في مكابرة: من أجل الشعب أطرق باب كبير العرافين فيتوسد الضمير مشاعر الاطمئنان حتى لو بدت فاترة!!

كان السكرتير الخاص يترقب وصولها .. حين رأى سيارتها الصغيرة تقترب.. شهر جهاز الريموت كنترول في مواجهة البوابة الضخمة فانبلجت عن ساحة واسعة تتوسطها نافورة تندفع من جوانبها سراسيب مياه تتقاطع وتتماس وتتوازى في تكوين هندسي تضفي عليه الرهبة تلك الانبثاقات الضوئية الارجوانية التي تتسلط من مكامن خفية في المحيط الداخلي للنافورة.. لوح لها أن تقف.. .. فتح الباب بسرعة.. وقفز إلى المقعد المجاور :

- خلف القصر سيدتي.. سيارتك هناك ستكون في مأمن من العيون..

تلتفت حولها، فسر نظراتها بأنها قلقة

- لا أحد سوى البروفيسور .. كل العاملين منحوا أجازة اليوم.

لكن عيونها تواصل السباحة في المكان... وحين شعر بأن القلق ليس محركها لزم الصمت... أما هي فصخب الانبهار داخلها دفعها لأن توقف السيارة،، وتتأمل ذلك القصر الذي يبدو بأجنحته الضخمة المتمردة على المركز كطائر أسطوري في قصة خرافية للأطفال.

تعاود السير وعيناها تحبوان في تعثر أحيانا فوق الجدران المزركشة بالغرائب .. بينما القدمان تنفذان توجيهات السكرتير.

- هنا سيدتي

يشير نحو باب مغلق سرعان ماتباعد شطراه حين وجه نحوه الريموت كنترول لتنزلق السيارة الصغيرة في جوفه.وتندس بين سيارتين كبيرتين.

- هذا الموقف خاص بسيارات البروفيسور..

تتأمل سيارة سوداء رابضة أمامها:

- أظن هذه هي السيارة الرولز رويس التي قالت الصحف إنه تلقاها هدية من وزير خارجية جازيا..؟!

تمتم في غموض: - انها الصحافة سيدتي!

لكنها كانت منشغلة حين تجاوزا باب الجراج بتأمل رسم فرعوني كبير على الجدار المواجه لكاهن يبسط كفيه فتنسكب فيهما أشعة شمس تنطلق من خدرها في الأفق الشرقي بينما يمثل يمينه فرعون في ترقب.

- من هنا سيدتي

تتبع خطى السكرتير عبر الدهاليز الخلفية المعتمة بالغموض والتي تبدو وكأنها صممت لتطمس فيها ملامح زبائن كبير العرافين من صفوة النخبة..

كان ينتظرها في صدر بهو كبير تنوء جدرانه بشتات من الرسوم التي تنتمي لأزمنة متنافرة

- أهلا سيدتنا الأولى

يطبع قبلة بتأنق على أناملها .. لكن شفتيه تخونانه فتسرى رجفتهما في عروقها رعشة خفيفة من التوتر

- أهلا بروفيسور منذر

يقودها إلى غرفة جانبية...

- مبروك القصر يا بروفيسور.. وإن كنت عاتبة عليك...

في توجس: - عتاب سيدتي سكين على عنقي..

- صرح مثل هذا كان ينبغي أن يفتتح في احتفال كبير يحضره الرئيس.. على الأقل لترى أجهزة الاعلام العالمية أن عهدنا هذا ليس فقيرا في الصروح العملاقة... وأظنه لو استثمر سياحيا سيكون أهم معلم سياحي في البلد.

- لكن فخامته على قدر علمي ليس من هواة التردد على جلسات العرافين..

قالت باقتضاب: - أعتقد لو جلس معك سيغير رأيه..

- صدقيني لو قلت لك إنه من كل هذا القصر لا أجد نفسي إلا في هذه الغرفة الصغيرة قارئا، أو متمددا على هذه الكنبة مطفئا الأنوار.. موصدا الحواس عن كل ما هو خلف الجدران.. سابحا في العدم ساعات عديدة..

ـ الجسد الأثيرى..؟!

ـ رياضة مدهشة.. تجردك من الشوائب، وتمنحك صفو سموات نقية من الغيوم.

ـ أتوق إلى خوض هذه التجربة.. لماذا لا تساعدني علي ذلك؟

بغير حماس: ـ إن شاء الله..

يقود دفة الحديث بعيدا..

ـ هذا ليس قصرا بالمعنى المألوف.. كما يظن الكثيرون..

يشير بيده عبر النافذة : ـ هذا الجناح مثلا مركز أبحاث علمية.. فيزيا.. طب.. هندسة وراثية.. يضم أيضا مكتبة ضخمة.. قاعة للمؤتمرات.. ليتك تقومين بجولة في أجنحة القصر..

يدلف السكرتير حاملا فنجاني قهوة.. يضع أحدهما أمامها.. والآخر على طاولة صغيرة بجوار البروفيسور ثم ينصرف فى صمت:

ـ مازلت تحبينها سكر زيادة..

وهى ترفع الفنجان إلى شفتيها

ـ نعم ... فى هذا أخالف كل أبناء جيلنا .. جميعهم يشربونها على الريحة.. حتى الرئيس..

ـ كيف أحواله الآن..؟!

ـ الحمد لله..

لم يكن في حاجة لاستنفار قواه الحدسية ليدرك أنها إمرأة مهمومة... صحف الصباح تكتظ كل يوم بأخبار الدمامل الموجعة التى يطفح بها جسد الأمة، ويتدفق صديدها طوفانا يحاصر مؤسسة الرئاسة، ليتكلس حجبا فوق ذلك الضى الآسر فى حزنه المنبثق من عينى السيدة الأولي... لكن أى هم تحديدا ساقها إليه..؟! وفى حضرتها تفقد مرآة حدسه صفاءها .. فتستعصى عليه كيمياء دواخلها.. وما كان أمامه سوى أن يناور فى أسئلته كى يعرف..

ـ سيدتى تبدو علي غير ما يرام.. زيارة المدرسة..؟!

شبح ابتسامة يلوح على شفتيها:

ـ وكيف عرفت..!! رعاية حفلات المدارس تدخل في علم التنجيم.؟!

ـ رأيتك في التلفاز..؟!

ـ أرهقني الصغار... غنوا وطني حبيبي الوطن الأكبر..!!

يمد إليها جسرا من المشاركة الوجدانية..

ـ نعم .. كان المشهد حادا .. فكرت للحظة أن أغلق التلفاز.. لم أستطع.. شعرت برغبة قوية فى أن أبكى..أصبحت سلوانا الوحيدة أن نجتر الذكريات فى شجن باك..

فجأة ينفض لكنته من وهنها العاطفي:

ـ لكن كيف حدث هذا..؟! أعنى هذه الأغنية لم تعد تغنى فى المدارس.. أظن المدير سيتعرض للمساءلة.. الأمر قد يفسر بشكل ما من الجهات الأمنية.

تتطلع إليه فى حيرة صامتة للحظات.. سرعان ما تقطعها:

ـ شريط الأغنية موجود فى كل مكان.. البيوت والسيارات .. حتى التلفاز أيضا يذيعها..

ـ أحيانا كرسالة تريدون توجيهها إلى جيرانكم..!!

تعاودها حيرتها الصامتة.. تنهض .. تخطو نحو النافذة .. ترنو إلى قرص الشمس وهو يستعد إلى الانزلاق فى خدره الغربى.. يتابع .. تتكثف نظراته داخل حدود قوامها النحيل... ينهض .. يخطو فى تردد تجاهها خطوتين ثم يتوقف.. يتقهقر إلى مقعده وسهمان من الألم ينطلقان من العينين الضيقتين يكبحهما سريعا.. تستدير فجأة لتباغته :

ـ قل لى يا بروفيسور..

ـ نعم يا سيدتى..

ـ أمازلنا أوفياء..؟!

يتخلى الوجه عن اتكاءاته فوق قبضتى يديه المتشابكتين.. يستغرق في وجهها لحظة مشحونة بالانفعالات .. يندفع خارجها بعنف ينعكس فى

ارتجافة الشفتين..

- أعتقد هذا..

يحاول أن يلملم شتات نفسه... يكثفها في بؤبؤ اهتمامها..

- كل منا مثقل بحب هذا الوطن!

- أشعر أن كلا منا يعيش كذبته الصغرى.. وفى النهاية تتجمع الأكاذيب الصغيرة لتشكل كذبة الوطن الكبرى.

يحتويها بنظرة اشفاق:

- هل تذكرين زيارتك الأخيرة لى فى المكتب القديم..!!

- كان ذلك منذ عام..

- نعم .. قلت لك يومها ما قاله كولن ويلسون.. مشكلة بعض الناس أنهم يفكرون أكثر ما ينبغي..الآن أقول مشكلة السيدة الأولى أنها تحلم باليوتوبيا أكثر مما ينبغي..

- ليست يوتوبيا يا بروفيسور.. لكن لا أستطيع أن أفهم ما يحدث.. هذا الشرخ الذى أصابنا .. المناضلون القدامى أصبحوا أصحاب توكيلات سيارات وعطور.. بعضهم سماسرة سلاح يغمضون أعينهم عن هوية البائع والمشترى...!!

قال مقاطعا وهو يهز رأسه مؤيدا:

- وكل منهم يحتفظ بشريط الوطن الأكبر في خزينته الخاصة.. يحن للاستماع إليه حتى البكاء من حين لآخر..

- ألسنا جميعا مشروخين..؟! الطبقة المتوسطة من جيل الخمسينيات والستينيات.. جيلنا أعنى..؟

تردف وهى تلوح بيديها نحو القاعة الفسيحة عبر باب الغرفة..

- أمازلنا ننتمى للطبقة المتوسطة..؟!

يتطلع إلى القاعة .. لكن ابتسامته لم تستطع أن تخفى شعور الضيق الذى يمور وراءها فقال بلكنة من يدافع عن نفسه :

- رغم انفصامى المادى عنها.. لكننى حقيقة لم أبرح هذه الطبقة.

ـ وجدانيا ربما ..لكن..

غمغم في شبه استسلام..

ـ أعترف أنها على المستوى الشخصي مسألة محيرة

ينفلت صوت خافت عميق من قرار أحزانها.

ـ ترى لو عاد هذا الزمن يا بروفيسور هل نطيقه..؟!

ـ ربما لا .. مثلما لا يستطيع بعضنا أن يطيق زمننا هذا.. رغم أنهم من نجومه.. الرئيس مثلا.. أظنه أكثرنا معاناة

في أسى مشوب بالسخرية:

ـ .. مطالب أن يقود زمنا ليس زمنه...

يجثم صمت حزين على المكان للحظات يقطعه البروفيسور بلكنة تساؤل:

ـ أراه في الصحف والتلفاز مرهقاً..؟!

ـ أمر طبيعي..

ـ صحيفة فرنسية تحدثت عن صحته .. قالت إنه يعاني من بعض المتاعب؟!

تضحك في مرارة:

ـ وكيف عرفوا ..؟! هو نفسه لا يدرى شيئا عن صحته .. ولا نحن .. آخر فحص اعتيادى أجراه كان منذ عام .. إنه لا يبالي..

غمامة من القلق تزحف على وجهها.. وهي تردف:

ـ لكنني أشعر به.. ماء الحياة بالفعل ينضب من وجهه.. ومنذ أسابيع بدأ يشكو من بعض الآلام..

تنزوي في لحظة من الصمت الحزين.. يمد إليها خيطا من الكلمات المتعاطفة.

ـ رأسه محشورة بهموم أربعين مليون مواطن

ـ وضغوط الداخل والخارج كما ترى لا تنتهي..!!

تصرخ عيناها بالتوسل: ـ ما الحل..؟!

يلقي بحواسه كلها عبر النافذة.. نحو الأفق البعيد... تبدو مشاعره المنسحقة في ساحة وجهه مثل أطراف محكوم عليه بالإعدام على طريقة قبائل الفايكنج.. مشدودة إلى أحصنة تركض في اتجاهات متنافرة..

ـ ماذا بك يا بروفيسور؟! تلقى إليه بأفكارها لتستحثه أن يقول شيئا: ـ فى لحظات يأسه يفكر في إجراءات حادة..

ـ قانون الطوارى مثلا ، أو يستقيل..؟!

تمتم بهدوء .. فقالت وهى مأخوذة من الدهشة:

ـ نعم .. هذا ما قاله منذ فترة.. تيليباثى!!

ـ فى خطابه الأخير للأمة استغرقت فى وجهه.. شعرت أن لديه ما كان يود أن يقوله.. لكنه أحجم..

ـ ليس تماما.. ما الحل..؟!

ـ أظن الظروف مواتيه الآن لاتخاذ قرارات مصيرية..

تتطلع إليه فى اهتمام.. يواصل

ـ لكن ليس من هذا النوع الدموى

ترتجف الحروف بين شفتيها: ـ دموى..!!

ـ قانون الطوارىء يهدد مصالح الجميع.. سيضطرون للنزول إلى الشوارع بأسلحتهم...

فى وجل : ضد الرئيس..؟!

ـ الكل ضد الكل.. لا أحد يأمن الآخر.. جبن الجرذان وأسنانها..؟!

يردف بعد لحظات من الصمت :

لن يختلف الأمر كثيرا لو استقال الرئيس .. كلٌ سيصارع إن لم يكن من أجل الحكم.. فعلى الأقل ليبقى مرهوبا.. والرئيس نفسه سيحاكم .وأنت .. وعبد الطيب.. !!

تنغرز كلماته رجفة فى جسدها.. تحاول أن تبدو رابطة الجأش..

ـ والآن ... ؟! أعنى أى قرارات ينبغى أن يتخذ الرئيس ..؟!

يفكر مليا للحظات ..ثم يقول

ـ لا أدرى.. الصورة غير واضحة فى رأسى الآن... امهلينى أسبوعا أو أسبوعين.. ربما انتهيت إلى شىء..

لا شيء في كيانها واع.. إلا القدمين.. تنتبه على صرخة تعقبها دفعات متتالية من السباب.. تضغط على الفرامل فجأة بحركة غريزية ..تتطلع إلى مصدر الصراخ على الجانب الأيسر.. أصبح بمحازاتها..

«لما أنت مش قد السواقة..إيه لازمة الأنزحة، ما تركبيلك تاكسى والا أتوبيس والا خديها موتورجل، ماهى البلد كلها قدامك أهه، رجليها مورمة من المشى، واللا انت على رأسك ريشة..!!

وجهه مألوف.. مثل كل الوجوه التى تلهث فى الشارع كأنها جميعا مستنسخة من وجه واحد.. شكلت ملامحه القاسية فى فرن أزلية نيرانه.. يباغتها خاطر غريب: ألا يمكن أن يكون هذا الوجه اغتسل أيضا صباح اليوم بدموع الوطن، حين كانت تسيل نزف كبرياء من بين شفاه صغار المدرسة..!! ودت لو تلحق به.. تقبله فى جبهته تتمتم : كم أنا آسفة.. كم أحبك..!!

ينكشف أمام ناظريها تمثال الزعيم الراحل عبد الطيب حسن النوايا.. تبطىء السير.. تغرق الملامح المختنقة بالغبار في مشاعر الحسرة.. تمطرها أبواق السيارات بنوبات غيظ متلاحقة مدعومة بصراخ بشرى.. تداهم أذنيها كلمة معيبة إرتجفت لها أوصالها.. تضغط على البنزين بقوة لتنفلت من نهر اللهاث البشرى المجنون.. تشق طريقها نحو القصر..!!

وجهه يطفح بالوهن.. ينزع عينيه فى تثاقل من بين الأوراق..

ـ حمداً لله على السلامة..

تشى الحروف برائحة التساؤل .. تحتوى كتفيه من الخلف بميل لتطبع قبلة على وجنته تعقبها ضحكة صافية حشدت كل طاقتها لتضفى عليها الصدق..

ـ ماذا يضحكك؟

تمايلت فى دلال: ـ غيرتك يا فخامة الرئيس..

- غيرة ماذا..؟ الحكاية أنهم اخبرونى أنك خرجت بسيارة صغيرة بعد عودتك من المدرسة وبدون حرس.. ألا يدعونى هذا إلى القلق..؟!

- تذكرنى بأى موظف صغير حين يعود إلى البيت ولا يجد زوجته

- وما الفرق..؟!

تتمتم فى وهن حالم:

- كم أتمنى ألا يكون هناك فرق..؟! كم أحسد أية بنت تمشى بجوار فتاها فى الشارع .. أيديهما متشابكة.. يضغطهما الشوق فيلتصقان .. يزجرهما الخجل فيتنافران.. وربما يجرجرها من يدها ليلحقا بأتوبيس.. وإذا لحقا به يدفعها أمامه بين الكتل البشرية.. ويحارب ليصنع لها حرملكا آمنا.. يصرخ فى هذا إن نظر إليها.. ويتوعد ذاك إن احتك بها.. تنسلخ من وهنها الحالم.. ثم تستطرد فى رجاء مشوب بمسحة من السخرية: - لماذا لا نكون مثلهم؟ وإلا احنا على راسنا ريشة..؟!

- يتابعها مشدوها .. يتساءل فى قلق:

- ماذا بك يا سلوى..؟!

ترد فى مرح: - لاشىء.. فقط أحلم..!!

يقهقه فى ضعف:

- تريدننى أجرى فى الشوارع .. وأجرجرك من شعرك..؟

- من أيدى..

- من شعرك .. من ايديك.. ثم نقفز فى أتوبيس..؟!

- يعود بنا ثلاثين عاما إلى الوراء.. أضع نقودى القليلة على نقوده القليلة.. وبالكاد يكفيان أكلة كباب.. هل نسيت زمان.. أيام الخطوبة!!

يتنهد فى مرارة - زمان!!

- بمناسبة زمان.. تمثال الزعيم مغبر.. لونه الوردى لم يعد له أثر

- وأين اللون الوردى الذى مازال له أثر فى بلدنا..؟!

- ليتك تطلب من محافظ العاصمة أن ينظفه..

ضاحكا فى سخرية:

ـ إذا قلت له ذلك حرفياً.. فليس من المستبعد أن أجده صباح الغد أمام التمثال حاملا جردل ماء.. وفرشاة..!!

تشاركه الضحك.. ـ أليسوا رجالك..؟!

ـ بل توابع رجال الأعمال والأحزاب والسفارات..!!

يردف فى سخرية:

ـ هل سمعت ماقالته وزيرة الاعلام فى البى بى سى، اليوم..؟!

ـ مسز كله تمام..!!

ـ تقول إن شعبنا يعيش أمجد أيام حياته.. ماذا يمكن أن يقول عنا العالم حين يسمعها تقول هذا.. ويسمع فى نفس المحطة أن ٦٠٪ من شعبنا تحت خط الفقر.. أليس هذا ما جاء فى تقرير صندوق النقد الدولى الذى أذاعته المحطة الأسبوع الماضى..؟!

بلكنة مواسية..

ـ حال كثير من الدول!! العالم يمر بأزمة اقتصادية.. الناس يقرأون الصحف.. ويعرفون ذلك.. لسنا وحدنا !!

ـ ويقرأون أيضا عن الفساد يا سلوى.. الصحافة تتكلم.. بل بدأوا يتكلمون عنك.. عن مشاريع أخيك..

تغمغم فى حزن خاو من الارادة: ـ لا أدرى فى الحقيقة ماذا أفعل معه..؟! حدثته مرة.. فغضب وقال: هل ترددين كلام الحاقدين..؟!

ـ ليس حقدا يا سلوى.. أخوك رفقى متورط فى عمليات غير نظيفة.. آخرها صفقة أسلحة للداخلية.. أخذ فيها عمولة كبيرة..

ـ لماذا لاتصدر تعليمات للوزارة أن يمنعوا التعامل معه..؟!

ـ والله أخشى أن يكون الوزير أيضا متورطا! وحتى لو قدرت على الوزير وكل الوزراء، لن أقدر على رجال الأعمال

تغمغم فى قلق:

ـ عرض علىّ عبد الطيب ابننا إدارة شركة جديدة يملكها

ـ شركة لشراء الديون المعدومة.. أعرف ..أخوك يستغل ابنك يا

سلوى.. تخيلي مثلا شركة لها ديون مليون دولار لدى رجل أعمال، ابن الرئيس هو الذى سيتولى تحصيلها، مكالمة واحدة لرجل الأعمال بعدها يتم تسوية الدين.. بل ليس بمستبعد أن يستغل الرجل الأمر، ويورط ابنك فى عمليات مشبوهة..

يستطرد فى ألم:

- أشعر أننى أصبحت مثل عبد الطيب حسن النوايا.. هو ذهب ضحية أعدائه فى الخارج وأصدقائه فى الداخل.. وأنا زدت عليهم أهلى.. ترنو إليه فى اشفاق

- بعد عشر سنوات فى الحكم لم أكن أتخيل أن تصل الأمور إلى هذه الحالة..!! يرف على شفتيها شبح ابتسامة تقطر بالمرارة وهى تردف:

- هل تتذكر أول يوم؟. ليلتها رجعت لى متأخرا.. جلسنا نتكلم عن الأحلام الكبيرة.. وظيفة لكل مواطن.. سكن لكل أسرة.. كمبيوتر فى كل بيت. وقفت أنت فى مواجهة صورة الزعيم عبد الطيب حسن النوايا.وقلت له: كل أحلامك التى تآمروا عليها وعليك وعلى البلد حتى لا تتحقق.. أعدك أننى سأحققها .. كان صوتك هادئا .. لكنه زلزل مشاعرى.. بل للحظة فكرت أن الزعيم سيهبط من على الجدران ليقبلك فى جبهتك.. ويمسح على شعرك مباركا.. هل تتذكر ..؟! ضممتك إلى صدرى.. وشعرت أننى أطير فوق كلامك لألمس الشمس . ماذا حدث؟

تنزلق من عينها دمعة.. تتركها تحبو ببطء على خدها .. ينهض . يخطو نحو مقعدها .. يقف خلفها ويحتوى وجهها بكفيه مجففا الدمعة بأنامله .. يتجاوزها .. يجلس على الكنبة فى مواجهتها.

- أعلم أننى كنت ضعيفا خلال السنوات الماضية.. أعلم أن هذا كان سببا رئيسيا فيما نحن فيه.. خفت إن قسوت أن أتهم بالديكتاتورية.. وهاهى النتيجة.. القبض على نشال فى أتوبيس يواجه فى الداخل والخارج بحملة شعواء، لكن هذا الوضع لا ينبغى أن يستمر.

تنهض من مقعدها لتجاوره.. تربت على يده فى حنان:

ـ رمزى.. أنت أكثر الناس دراية بمدى حبى لهذا البلد
ـ أعرف .. لكن
تقاطعه فى صدق: ـ اسمعنى يارمزى.. إذا كانت الخطوة الأولى فى الإصلاح القبض على رفقى، وحتى ابنى.. فسوف أكون أول من يؤيدك.. لن أكون أبدا لوح الزجاج في مؤسسة الرئاسة..!!
ـ عموما أنا دعوت لاجتماع لرؤساء الأحزاب .
فى توسل: ـ قبل الاجتماع مع الأحزاب ..لابد من اجراء الفحوصات التى طلبها الأطباء..أرجوك يارمزى
يربت على أناملها بشفقة: ـ حاضر يا سلوى..
للذكريات الشجية نشواها الثملة.. تنسل من المكان إلى ذلك المساء الربيعى البعيد.. حين تقطع الشارع المعتم هى وجارتها فوزية عائدتين من الجامعة.. تضم بيمناها كراريسها إلى صدرها واليسرى مدفونة فى جيب سترتها الجلدية وراديو المقهى الصغير يلفحها بنغم مطربها المحبوب : ضى القناديل والشارع الطويل.. فكرنى يا حبيبى .. بالموعد الجميل وليالى..
ـ حتى لو لم تتزوجى الرئيس.. كان لديك مشروع آخر عظيم..
تنتبه: ـ عبد الطيب..؟
يغرق فى مقعد مجاور باسطا ساقيه الطويلتين فى الفراغ أمامه..
ـ مشروع ماذا..؟
ـ مطربة .. صوتك خطير..
قالت فى مرارة: ـ فى هذه الحالة كنت ستخسر أنت وخالك رفقى..!!
تمتم فى استهجان مشوب بالدهشة:
ـ حتى أنت يا أمى تصدقين ما يردده جرابيع الصحافة..
ـ جرابيع..!!
ـ للأسف يا أمى . هذا هو الوصف المناسب لبعضهم..!!
قالها بيأس جندى مهدد بفقدان خندقه.. لكنه يستميت فى الدفاع

عنه..يستطرد:

- تعرفين ..أحد الصحفيين طلب من خالى أن يخصص له ٥٠ فدانا مستصلحة فى مشروع الزيدية... خالى رفض فهاجمه فى مجلته .. واتهم وزير الزراعة بأنه أصبح موظفا فى مشروع الزيدية بدرجة ناظر عزبة.

تنصت إليه باهتمام ..تود أن يكون صادقا.. لكن بالداخل شيئا يتقاطع مع ما يقول

- أظن إسمه طاهر عبد الحكيم.. يعمل فى مجلة الأزمنة الحديثة.. كان عنوان المقال «وزير أم ناظر عزبة» اعتدى عليه بعضهم وهو عائد إلى منزله ليلا.. أمك تتابع كل ما يجرى فى البلد يا عبد الطيب.. بما فى ذلك التقارير التى تأتى لوالدك عن نشاطك أنت وخالك..

- لنفرض أن هذا الذى يرددونه صحيحاً.. أليس من حقى أن أومن مستقبلى.. مثل أى شاب فى هذا البلد..

- بالطبع من حقك.. لكن بمجهودك أنت ..؟!

يستغيث بمهدى ابن الزعيم الراحل عبد الطيب حسن النوايا ليبث الوهن فى هجمات أمه

- تريدون « أن أكون مثله.. موظف فى مرفق المياه يهدر ساعات الدوام الرسمى والبارتايم ولياليه فى العثور على إجابة للسؤال المستعصى.. كيف يوزع مرتبه الـ ٢٠٠ دولار على احتياجات ٣٠ يوما .. وأحيانا ٣١ .. أنا لا أدرى كيف أنجب أولاده الأربعة.. وذهنه مشغول طول الوقت بحل هذه القضية..؟! خالى رفقى اتصل به وعرض عليه وظيفة بعشرة أضعاف مرتبه فى الحكومة .. رفض .. عرض عليه أن يؤسسا شركة يديرها هو.. أيضا رفض.. يظن أن العمل مع خالى انحراف عن مبادىء أبيه..

- ربما كان محقا..!!

غمغمت في قهر.. تآكلت حروفها قبل أن تصل إليه..أوشك أن يسألها ماذا تقول.. لكنه فجأة يستغرق فى شاشة التلفاز..

ـ الشعب كله يتحدث اليوم عن دموع السيدة الأولى

تنتبه :

حفل المدرسة !! هذه ثالث مرة يبثونه اليوم..

ترفع سماعة الهاتف.. تضغط على الأرقام بعصبية

ـ دكتورة فوقية.. مساء الخير.. على قدر معلوماتى أننا لم نحقق أية انتصارات اليوم.. فلماذا فرح العمدة المنصوب فى تليفزيونك هذا..؟!

سحب الضيق تزداد كثافة على الوجه فتقاطع:

ـ هذه مجرد لحظة ضعف. أى واحد منا يمر بها

فى نفاد صبر:

ـ دكتورة فوقية .. اتصلى الآن بالتليفزيون.. اطلبى منهم أن يبثوا شيئا آخر غير هذا التهريج ..

تلقى السماعة فى انفعال .. تخاطب ابنها..

ـ تصور منطقها ان العالم أصبح مفتوحا على بعضه والشاطر من يستفيد من قنواته الفضائية فى تقديم نفسه.. ودمعتى اليوم دليل نقدمه للعالم من أن قلعة الوطنية لدينا شامخة ولن تنهار تحت أية ضغوط!!

تردف فى زهق : هل هذا معقول .. الوطنية أصبحت دمعة!!

ـ ما تقوله الوزيرة صحيح يا أمى .. حتى الحروب تبث على الهواء مباشرة والقيود على التجارة تتآكل.. كم سنة وتلغى الحدود..!!

يتوج حديثه فى حماس بما يراه يقينا.. ـ العالم بالفعل يتحول إلى قرية صغيرة.. هذه حقيقة يا أمى وليس مجرد تعبير إنشائى..

ترتجف الشفتان بموار قلقها.. تتمتم ،وهى تنهض:

ـ وفى قريتكم هذه.. ترى من سيكون عتريس ومن فؤاده..؟

تفحص الشيخ عبد الرحمن التميمى الدعوة التى تلقاها من رئاسة الجمهورية بتوجس.. حاول استنطاق ما بين السطور لعله يشى بمرمى الرئاسة من الاجتماع دون نجاح.. ذلك أن الدعوة لم تزد عن سطرين وثلاث كلمات.. قلبها بين يديه مفتشا عن كلمات أخرى.. فلم يجد ..

أخرج هاتفه المحمول من جيب جلبابه. وهاتف سكرتير حزب الخلاص الشيوعى:

ـ السلام عليكم يا أخ وجدى

لكن وجدى الحناوى باغته ضاحكا:

ـ أخوك فى الدين أم فى الدنيا يا فضيلة الشيخ؟!

ورغم أن تلك كانت عادة سكرتير حزب الخلاص كلما جمعه الحديث بالشيخ التميمى منذ أن التقيا فى السجن منذ ثلاثين عاما.. إلا أن الشيخ على ما يبدو لم يكن مهيأ لاستقبال مزاحه الساخر.. فصاح فى غضب:

ـ أخى فى المصائب التى تداهمنا من كل صوب.. المهم هل وصلتك دعوة الرئاسة..؟!

تجاهل وجدى الحناوى سؤاله... وقال فى شفقة مصطنعة:

ـ لم كل هذا الغضب يا فضيلة الشيخ..؟! إننى فقط أخشى أن يسمعك أحد من رجال حزبك وأنت تنادينى بأخى فينشر بين الناس أن الشيخ الجليل قد صبا.. فيقيمون عليك الحد.. وربما تسرب الخبر إلى الخارج!!

قاطعه الشيخ فى نفاد صبر:

ـ أرجوك يا سيد وجدى.. ليس هذا وقت المزاح.. هل وصلتك دعوة الرئاسة..؟!

ـ سيد وجدى.. سيد وجدى.. لا أظن أن هذا اللقب يعبر عن عمق العلاقة الانسانية بيننا ..

هاج الشيخ عبد الرحمن حين سمع عبارة العلاقات الانسانية وصاح فى عصبية

ـ إياك يا رجل أن تظن أن ما بيننا يرقى إلى العلاقات الانسانية.. إنها مصالح..

فقال سكرتير حزب الخلاص مصطنعا الاستنكار:

ـ لا .. لا يا فضيلة الشيخ.. المصالح لا تجعل من الناس أخوة.. اسمع لدى اقتراح يفض هذه الاشكالية...

- أية إشكالية يا رجل؟! أسألك عن الدعوة هل وصلتك..!؟

- نعم وصلتني ..لكن ما رأيك في كلمة رفيق؟! إنها تعبر تماما عن نضالنا المشترك لأكثر من ثلاثين عاما ومصيرنا الواحد.. وأيضا شراكتنا في مشروع حبة البركة..

يزفر الشيخ عبد الرحمن بحدة

- رفيق ..اسطى .. معلم .. يا أخي سنتدارس هذا الأمور فيما بعد.. المهم دعوة الرئاسة..

- ماذا بها ..؟!

لم تجد وساوس الشيخ عبدالرحمن صدي لدي سكرتير الحزب الشيوعي حتى حين صرح له بأنه يخشى أن تكون مذبحة قلعة أخرى.. فكتم وجدي الحناوي رغبته في الضحك وقال في جدية مفتعلة:

- اسمع يا رفيق.. لدى نصيحة جيدة.. أنا شخصيا سآخذ بها قبل التوجه إلى الاجتماع.. اترك عنوان رئاسة الجمهورية لدى زوجتك.. حتي إذا تأخرت .. تقوم بإبلاغ الشرطة لتداهم الرئاسة... بل أقترح أيضا أن تخبر الرئاسة بذلك ..أن الشرطة لديها علم بمكاننا ولدى أيضا اقتراح آخر يا رفيق..

اغلق الشيخ التميمي الهاتف في عصبية وصاح مناديا سكرتيره.. الذى ما إن دلف إلى المكتب مهرولا.. حتى قال له الشيخ بلهجة آمرة..

- اتصل بأعضاء مكتب الحل والعقد.. اخبرهم أنني سأجتمع بهم عصر اليوم..

عرض الشيخ هواجسه .. تبادلوا نظرات الدهشة.. التى سرعان ما انتهت إلى حالة من الحيرة.. حاول نائب الشيخ أن يتجاوزها حين اقترح مقاطعة الاجتماع.. لم يجد الاقتراح استحسانا .. قدم أمين شئون الدعوة حلا وسطا..

- ليكن ممثلنا في الاجتماع واحدا آخر.. الشيخ لو خسرناه - أطال الله في عمره - فلا قائمة للحزب بعده..

كافأه الشيخ بنظرة مفعمة بالرضا.. تلقاها أمين شئون الدعوة بامتنان خجل..

- ليس هذا القصد، الحزب والحمد لله به وفرة من الرجال ذوى العلم والهمة ممن يملأون أى مكان شاغر..

علق الشيخ التميمى بينما عيناه تحبوان فى الوجوه بحثا عن رد الفعل .. ثم أردف..

- لكن كما تعلمون البلاد تمر بمرحلة اضطراب تلزمنا الحذر..

وقال نائب الرئيس مقترحا:

- مارأي فضيلة الشيخ فى أن نعرض الأمر على اخواننا؟!

غيمة من القلق زحفت على وجه الشيخ.. وهو يسأل

- هل فتشتم المكان جيدا..؟!

طمأنه مسئول الأمن.. فعاود الشيخ هدوؤه .وقال موجها حديثه إلى نائبه..

- ربما علمت الحكومة لو اتصلنا بالاخوان.. وانتم تعلمون كيف يستغلون هذا الأمر لإضعاف مكانتنا أمام الرأى العام..

قال النائب:

- عفوا يا شيخنا.. لكن الاسلام يتجاوز هذه النظرة القطرية الضيقة... هدفنا والاخوان واحد.. مصلحة الأمة فى كل مكان..

قال أمين شئون الدعوة:

- العوام لا يفهمون هذا .. إنهم يتعاطفون مع الحكومة حين تتهمنا بأننا مأجورون ..أنا أرى رأي الشيخ فى هذا الأمر...

قال الشيخ التميمى موحيا بإنتهاء الاجتماع..

- وشيخكم يرى دعوة المكتب السرى إلى اجتماع مفتوح مع اعلان حالة التعبئة بين كوادر الحزب.. فإن لم أعد من القصر.. انزلوا إلى الشارع..

أما كوادر حزب الخلاص... فقد نزلوا إلى الشارع قبل أن يبدأ الاجتماع..!!

كانت إحدى أمسيات الربيع النادرة.. نسمة خفيفة تبدو كنغمة من تشكيل أنامل مايسترو عبقرى تسرى فى الفراغ رجفة من النشوة.. حفيف أوراق الشجر يتهادى لاغيا كل التكوين البشرى إلا الأذن والوجدان..

- مارأيك يا رمزى لو قمنا بجولة بسيارتنا الصغيرة على الكورنيش..؟!

يحتويها بابتسامة مغلفة بالشفقة..

- الكورنيش لم يعد كورنيشا يا سلوى..!!

- الساعة الآن العاشرة..أظنه الآن أكثر هدوءا

- ولو. أمراض وسط البلد كلها انتقلت إلى الكورنيش.. تدخلينه بحواسك الخمسة.. تخرجين بلا حواس.. لم يعد طريق العشاق كما كنت تسمينه يا سلوى..

تتذكر .. كان رئة المدينة.. من نسمات النهر.. من أنفاس العشاق تستلهم المدينة أوكسجين انسانيتها.. تستيقظ على خطى تقترب .. كان أمين الراوى مستشار الرئيس..

- أهلا يا أمين ..اجلس .. هه ماذا لديك..؟!

بدت اللهفة فى كلمات الرئيس..

- الأحداث بسيطة كما توقعت فخامتكم .. وتمت السيطرة عليها

- حزب الخلاص .. أليس كذلك؟

- نعم..

- والمصانع الأخرى..؟!

الاضطرابات لم تتجاوز مصنع الصلب..

- جيد..

- وزير الداخلية يسأل عن مصير المقبوض عليهم..

- أمن دولة..

قالها بحزم.. ثم واصل مفسرا..

- حتى لا تفلت الأمور أكثر من أيدينا..

استأذن أمين الراوى فى الانصراف .. شيعته بنظراتها وكأنها تخشى أن يعود ثانيا.. قال الرئيس مبتسما فى سخرية

- الشيوعيون يستعرضون عضلاتهم قبل الاجتماع..

قالت فى تجاوب فاتر :

- كان هذا أسلوب وجدى الحناوى منذ أيام الجامعة...

رد فى عصبية

- سأجبره على التخلى عن هذه الألاعيب الصبيانية..

تحتويه بشفقة.. تحاول إعادته إلى المكان

- ألا يذكرك هذا الجو بشىء يا رمزى..؟!

يلتفت حوله متأملا أحواض الزهور المتناثرة عبر الحديقة..

- الجامعة..

نطق بها مصحوبة برجاء أن تلامس مخزون ذاكرتها.. وقد استجابت لرجائه حين قفزت إلى عينيها ومضة نشوة شجية وهى تقول: - حديقة الجامعة.. شهور آخر السنة.. مارس.. ابريل..

يزداد تجاوبا معها:

- كنا نرى الحياة بقلب ربيعى.. ونتساءل فى دهشة صبيانية

تلتقط خيط الحديث من رأسه..

- كل متع الدنيا ، أودعها الله بين أنامل الناس... فلماذا الكثير تعساء..؟!

- أنانفسى مازلت أطرح هذا السؤال..

ينهض .. تجاوره .. يتمشيان .. تبحث أناملها عن أنامله لتتشابكا معا .. يعلق ضاحكا: - مازلت تفكرين فى الكورنيش..؟!

- الكورنيش هو الماضى.. كنت أتمنى أن يكون العمر كله

تتوقف أمام حوض ياسمين.. تلتقط ياسمينة.. تقربها من أنفها.. من أنفه..

ـ تميزين الياسمين عن كل الزهور..
ـ ألا تعرف لماذا..؟!
ـ لماذا ..؟
ـ ها أنت نسيت..
ـ آه .. ما قلته لبائعة الياسمين التى اعترضت طريقنا على الكورنيش لتبيع لنا عقدين..
ـ قلت لها وأنت تتفحص سلاسل الياسمين .سأشترى كل ما معك.. لو كان لديك ياسمينة أحلى من تلك التى معى.. ارتبكت الصبية للحظة.. ثم انسحبت .. وهى تنظر إلينا فى غموض حالم.. الآن استطيع تفسير نظرتها الغامضة.. أن يكون عريسها مثلك.. ومضة حلم تلبستها مع كلماتك.. قال ضاحكا:
ـ وحتى حين أشفقت عليها وقررت أن أشترى كل ما معها من ياسمين.. لم يسعفنى جيبى.. ولا حتى جيبك :
ـ ليلتها عدنا إلى المنزل كعابى..!!
تزحف غمامة حزن على وجهه:
ـ هل يا ترى عشاق اليوم سعداء مثلما كان الحال زمان؟! يردف: لا أظن .. الحياة كانت بسيطة فى زمن عبد الطيب حسن النوايا، كان الموظف راتبه بضعة دولارات.. عشرون أو ثلاثون دولارا.. لكنه يكفى لأن يدخر ويؤثث بيتا صغيرا ليتزوج فيه من يحب.. كانت سعادة الناس فى أغنية.. فى قصيدة.. فى كتاب..فى فسحة علي النهر. أو زيارة للأهل والأصدقاء.. كانت الناس خيرة.. آنة مريض فى فراشه.. يهتز لها كل الجيران...
يواصل فى مرارة:
ـ الآن .. المدير العام إن لم يرتش سيجوع هو وأولاده.. والمهن المميزة.. مهن الرسالة .. الأطباء والمحامون والصحفيون والمدرسون .. كل جماعة تنهش فى لحم غيرها..

- لماذا قلبتها سياسة يا رمزى..؟

فى انفعال:

- ليست سياسة يا سلوى.. هل قرأت عن حكاية الطبيب الشره فى صحف الأسبوع الماضى؟!

- هذا الطبيب الذى اتفق مع أهل المريض على استخراج ثلاث حصوات من مرارته فى مقابل ألف دولار عن كل حصوة.. ثم اكتشف أنهم أربع حصوات..

- خرج من غرفة العمليات ويداه تقطران بالدم ليخيرهم بين دفع الألف دولار إضافية أو اصطحاب مريضهم إلى طبيب آخر..

- تصرف غير انسانى..

- المريض مات..

تشهق فى ذهول

- ماذا؟! الصحف لم تقل هذا..

- وزير الصحة أبلغنى صباح اليوم.. تبين من التحقيق أن أهل المريض حين رفضوا دفع المبلغ الاضافى اغتاظ الطبيب وطلب من الممرضة أن تخيط الجرح بأى شكل.. المريض أصيب بتلوث .. ومات..!!

- هذا الطبيب ينبغى أن يحاكم..؟!

يتجاهل إقتراحها .. ويواصل: - هل تعتقدين أن مشكلة هذا الطبيب رغيف خبز أو رسوم مدرسة لابنه.. أو إيجار شقة..؟! أنا طلبت التحرى عن ثروته .. فوجدت لديه ثلاث فيلات فى منتجعات سياحية.. و ٤٥ فدان موالح وفيلا علي الكورنيش.. إثنان من أبنائه مدرسان فى كلية الطب، والثالث طالب بامتياز..

سحابة من الوجوم تغشاها .. ينتابه إحساس بأنه يحملها ما لا تطيق من هموم الدولة.. فأردف مبررا:

- هل تعرفين يا سلوى ما الذى جذبنى فيك.. رومانسيتك الشاملة.. وكان هذا كلامك.. الرومانسية ملاذ دافىء يسع فى حب.. الوطن

والناس.. كل الدنيا .. ألا تتذكرين..؟!

تضغط على يده:

ـ كأنك تظن أننى نادمة على ارتباطى بك..

ـ أخشى أن أكون ظالما لك.. وكل أحاديثى حول مشاكل الدولة والناس.

ـ حين أطلب منك مساحة من الوقت فارغة تماما من السياسة فلأننى مشفقة عليك.. ليلة أمس فوجئت بك تهذى وأنت نائم.. لم يكن كلاما.. بل شجارا.. كنت تهدد بعض الناس بإلقائهم فى مفرمة سيارة البلدية..

يقول ضاحكا: ـ لابد أنهم رؤساء الأحزاب ورجال الأعمال

تشاركه الضحك.. ـ أو مسئولو صندوق النقد..

ـ جميعهم يستحقون الفرم .

يلفهما الصمت قليلا قبل أن تقول

ـ معظم النساء الرومانسيات يفشلن فى حياتهن الزوجية.. هل تعرف لماذا..؟! دعنى أقول لك السبب.. لأن أزواجهن يجذبهن من علياء الرومانسية ليلقين بهن فى حظيرة حيوانات:

ضاحكا: ـ أخشى أن أكون أحد هؤلاء الأزواج..!!

ترتعش الكلمات بين شفتيها فى وهن..

ـ صدقنى يا رمزى.. معك .. وبعد كل هذه السنوات .. مازلت أشعر بأن مخدعى فوق السحاب..

تفر بخجل صبية عند أول رجفة حب فى حياتها..

ـ ما رأيك فى مزيد من الشاى..؟!

لا يتجاوب مع اقتراحها..

ـ أشعر بأن معدتى ليست على ما يرام..

ـ مقل أنت فى أكلك.. قد يكون هذا هو السبب؟!

ـ لا أدرى..

ـ لم تجر الفحوصات كما وعدتنى..

ـ إن شاء الله بعد الاجتماع..

بدا صباحا جميلا .. تحمل أنفاسه الربيعية رائحة أزهار القرنفل إلى مخدعها .. تنهض من فراشها فى حيوية... بداية متآمرة على ما قررته ليلة الأمس.. أن ترفل اليوم فى نعمة التكاسل.. كانت تود أن يشاركها هذه النعمة.. لكن صباحه مثل كل صباحاته مثقل باللقاءات الشاقة.. ويكفيه لقاءه بأعضاء المجلس الوطنى لرجال الأعمال.

كانت تحلم بيوم تخلو فيه أجندتها من الأعمال لتمرح فى فضاءات نهاره دون أن تنظر إلى عقارب الساعة، أو تذكرها سكرتيرتها بموعد مع ممثل اليونيسيف.. أو اجتماع لجمع التبرعات لمستشفى.. وهاهو ذلك النهار الربيعى يمثل بين يديها مطيعا لتنفقه كيفما شاءت.. لكن جسدها يتآمر عليها.. ينهض فى عنفوان .. وتحت الجلد رغبة ملحة في الحركة.. فى الخروج .. إلى أين..؟ تسأل صفحات اجندتها .. تتذكر .. دار الحنان لرعاية الأيتام.. تلك التى زارتها منذ أسبوع.. وما عثرت على دليل واحد يؤكد اتهامات إحدى الصحف من تدنى مستوى الخدمات.. وسوء معاملة الأطفال.. لماذا لا تفاجئهم اليوم؟ ربما عثرت في زيارتها غير المتوقعة على ما لم تجده فى زيارتها المصحوبة بكاميرات المصورين..؟ راقتها الفكرة ..

ارتدت ثيابها سريعا.. توجهت إلى مكتبها .. طلبت من سكرتيرتها مفتاح سيارتها .. أخبرتها أنها ستذهب لزيارة صديقة قديمة وتعود بعد ساعتين.. شددت على أن يبقى الأمر فى طى الكتمان.. تسللت إلى خارج القصر.. وحين احتوتها الشوارع .. واتاها خاطر آخر ارتسم على شفتيها ابتسامة .. تهدىء من السرعة وتتطلع إلى اليمين واليسار.. تلمح فراغا أسفل الجسر.. آخر يسعى إلى الاستيلاء عليه.. تلوح له مستأذنة.. يتجاهل إشارتها .. يحتل المكان.. تبحث عن فراغ آخر.. يبدو الأمر شاقا.. المدينة تحت أقدام سكانها وسياراتها والجسور والمبانى.. تلاشت فراغاتها.. يلوح لها عجوز : ـ هنا يا هانم..

تنصاع فرحة.. لكن المكان ضيق.. إنه لا يكفى حتى لموتوسيكل !!

يلاحظ الرجل اضطرابها..

ـ بإذنك يا هانم..

تغادر السيارة مستسلمة.. ليحتل مقعد القيادة وبمهارة شديدة حتى دون أن يفرط فى النظر إلى الزوايا يودع السيارة المكان..

ـ قد أغيب ساعتين..!!

ـ براحتك يا هانم..

ـ آه .. لو سمحت ..أتوبيس رقم كم يصل إلى شارع المنتزه..

ـ اركبى ١١٨.. ولكن..!!

ينظر إلى السيارة فى تساؤل.. تتجاهله: .. شكرا..!! تبتعد قليلا.. لكنها تعاود الالتفات إليه فى حيرة.. يصيح

ـ المحطة بعد مائة متر على اليمين..

تومىء إليه شاكرة..

محظوظة لأن تلك كانت المحطة الأولى للأتوبيس.. كان ثمة مقعد فى المنتصف شاغرا ،تجاهد لضبط خطواتها التى تبدو فى تعثرها وكأنها الخطى الأولى لطفل.. إلى أن بلغت المقعد .. فإن كانت نظارتها السوداء التى تغطى نصف وجهها قدنجحت في حجب زغرودة مرحة في عينيها.. إلا أنها لم تستطع كبح جماح ابتسامة نقية تهجع بين الشفتين.. وهى تتطلع إلى المرأة المنتصبة بجوار مقعدها..

ـ من فضلك يا هانم اعطنى هذه الحقيبة..

عينا المرأة التي ركبت توا تشرق أيضا بابتسامة ارتياح.. وهى تضع الحقيبة المكتنزة على ركبتيها .. دون أن تنبس الشفتين بحرف.. لكن العيون تثرثر بمشاعر دافئة.. تتشابك معها عيون تلميذة تتدلى من يدها حقيبتها المدرسية بينما اليد الأخرى تتشبث بعمود المقعد ..شاغله يمد يده ليسحب حقيبة التلميذة ويضعها على ركبتيه.. فتكافئة التلميذة بابتسامة مفعمة بالمودة.

- ماذا عن أخبار البورصة اليوم..؟

شاغل المقعد الأمامى يسأل جاره الذى يتصفح جريدة..؟!

يجيب الرجل بلكنة تشى بالسخرية..!!

- أسهمك فى أية شركة..؟

فى شىء من البراءة يجيب الرجل: - لا .. ليس لدى أسهم.. ولكننى فقط أود أن أعرف تأثير هذا الرجل الذى اسمه كاهان..

يصحح الكمسارى النحيف الذى برز فجأة من بين السيقان:

- كوهين.. تذكرتك يا أستاذ..؟!

يتطلع إليه الراكب فى دهشة - كمسارى مثقف..

يعلق المحصل فى زهق.. وهو يقطع التذكرة

- لا مثقف ولا يحزنون.. كوهين هذا استثمر جزءا من فلوسه فى أسهم شركة النقل العام... ولو لعب بذيله كما فعل فى دول أخرى.. ستخرب بيوتنا..

- يقال إنه استثمر مليار ونصف مليار دولار فى البورصة

- ربنا يستر..!!

يعلو صياح آت من الخلف: - يا جماعة اعطوا السيدة فرصة لتمر..

تلتفت إلى الخلف فى فضول.. الاتوبيس الذى كان يضم مقعدا شاغرا منذ محطتين تحول إلى كتلة من اللحم البشرى تنسلخ منها امرأة مسنة تتلاحق أنفاسها.. المرح الطفولى يختزل فى زاوية الاهمال بالداخل أمام نظرة هلع تنفجر فى العينين - تفضلى يا أمى.. تعالى هنا.. مكانى

فجأة أصبحت عاصمة للعيون... تنتابها رجفة خجل.. هل أخطأت ..؟! تبحث عن مبرر ولو كذبا:

- فى الحقيقة أنا نازلة فى المحطة القادمة..

تسحب السيدة الملتصقة بالمقعد حقيبتها .. فى الوقت الذى تلهث فيه العجوز لكى تصل إلى المقعد..

فى موقعها الجديد ما بين ذراع المقعد الحديدى.. والكتلة اللحمية التى

تمطرها بروائح متباينة من الخلف انتابتها للحظة موجة من التساؤلات المحبطة.. ما هذا الذى تفعله..؟! أهذا هو التواصل الانسانى الذى تحن إليه..؟! أهؤلاء المضغوطة بينهم بعنف هم البشر الذين تسللت من أسوار القصر لتسكن فى اطمئنان ولو لساعات بين أنفاسهم..؟!

- المحطة اقتربت يا هانم..

ينبهها جارها ... تجيب وابتسامة حرجة ترتعش على شفتيها:

- يبدو أننى..

تلجمها الحيرة.. تود القول إنها لم تنتبه وأن محطتها ليست القادمة... لكنها خشت أن تسمعها العجوز فيصيبها الحرج ..لزمت الصمت للحظات ثم أردفت:

- تذكرت مشوارا آخر هاماً.. لن أنزل المحطة المقبلة..

تخترق غيوم الأنفاس الرطبة صرخة حادة: - حرامى..!!

رجل قصير يتشبث بقميص شاب نحيل يحاول أن يشق طريقه نحو النافذة.. - الحرامى سرق محفظتى..

تمتد عشرات الأيدى نحو الشاب القصير فى محاولة لإعاقته .. يشهر مطواه فى الهواء.. يتخاذل حصار الأيدى من حوله ..يلقى بجسده نحو أقرب نافذة.. لكن الأيدى تعاود اللحاق بو.. المطواة تمرق فى جنون جيئة وذهابا فوق الرؤوس ترتفع ذراعها اليمنى فى حركة لا ارادية لتحمى وجهها من المسارات الفوضوية للمطواة..

- آه..!!

يمتد ذراع فولاذى من بين الأذرع ليشل حركة المطواه.. ينزعها

- أصبت الست يا ابن الزانية.. والله لألقى بك تحت عجلات الأتوبيس

تتوسل إليه ..أرجوك..!!

يرمقها صاحب الذراع الفولاذى فى دهشة

- ما هذا الذى تقولينه يا مدام..؟! ابن الكلب ... كاد يقتلك..؟!

تتوسل أن يكف.. تتطلع إلى الشاب النحيل بشفقة.

- لماذا ..؟!

حروفها تعجز عن اختراق نظرة عينيه المتبلدة.. تحاصرها العيون المشدوهة بألف لماذا ..!! - المستشفى يا أسطى

تنتبه إلى خيط الدم الرفيع الذى يزحف فوق بطن الذراع.. تحاول بمنديلها أن توقف النزيف، ينزع أحدهم قميصه ..يلفه بقوة حول ذراعها..

تشق طريقها نحو السائق.. وحين أصبح فى مرمى صوتها طلبت منه أن يقف.. استجاب وهو يردد

- المستشفى قريب يا مدام... كان من الأفضل..

- لاداع.. مجرد خدش بسيط..

يفسحون لها طريقا بصعوبة.. وهى تهم بهبوط درجة السلم تتذكر شيئا فتعاود الالتفات نحو الداخل

- يا أستاذ ..يا أستاذ

تلوح نحو صاحب القميص

- نعم ..أنت ..اعطنى تليفونك.. عنوانك..!!

يرفض.. - مع السلامة يا هانم

تتطلع إلى السائق. كأنها تطلب مساعدته .. تصيح فى عناد طفولى:

- لن أنزل إلا إذا أعطانى عنوانه..

أخرج الرجل ورقة من جيبه وطواها.. وبينما كانت الأيدى تتناقلها .. شاع همس استقبلته بقلق

- يبدو أنها بنت ذوات!!

- كأننى أعرفها

- لو خلعت النظارة السوداء لعرفتها

- هل يمكن أن تكون

- أول مرة تركب أتوبيس.. كانت تسألنى كم الأجرة..؟!

حين وصلتها الورقة.. دستها فى حقيبتها علي عجل.. وألقت بنفسها في قرار الشارع، تتوسل إلى سائقى التاكسى بيدها.. أحدهم يقف..

تلقى بجسدها المتهالك فى المقعد الخلفى

- إلى أين يا مدام..؟!

بدا السؤال مستعصيا.. تحاول أن تشكل من شتات الذاكرة أية معلومة عن موقع السيارة... بصعوبة تتذكر .. تخبره.. تضغط على هاتفها المحمول.. تلح على سكرتيرتها أن تأتيها حالا.. تحدد لها موقع السيارة.. كادت السكرتيرة أن تسقط مغشيا عليها حين رأتها هكذا.. تتناول ذراعها فى هلع..

- الجرح فى حاجة إلى تنظيف عاجل

قالت باهتمام .. وهى تسحب ورقة صغيرة من حقيبتها ، وتضعها على تابلوه السيارة أمام السكرتيرة..

- العاجل الآن... هذا العنوان .. اتصلى بهذا الرجل ضرورى.. إن كان متزوجا اشترى له بدلة وفستانا لزوجته وبعض الهدايا لأولاده..أما أن كان أعزب ..فاشترى له..

تقاطعها السكرتيرة فى دهشة: - الورقة فارغة يا افندم..

تتمتم فى قهر:

- هذا المجنون ..قد لا يكون لديه سوى هذا القميص..!

***

تسللت السيارة إلى داخل القصر عبر إحدى البوابات الصغيرة الخلفية.. وبجوار باب صغير لجناحها توقفت .. قالت سكرتيرتها وعيناها تمسحان المكان..

- لا أحد سوى الحارس .. لن يلاحظ شيئا..

وهى تغادر السيارة: - استدعى ممرضة قبل أن يأتى فخامته.. لا أريد أن يرانى هكذا..

- فخامته مازال فى اجتماع مجلس رجال الأعمال

دلفت إلى الحمام مباشرة.. وبعد لحظات عادت سكرتيرتها .. قالت وهى تساعدها فى إزاحة الرباط..

- المرضة قادمة حالا...

ستحكى له ما حدث.. سينصت إليها فى دهشة سرعان ما تتناثر قهقهة.. تنتهى هكذا.. - كم أنت مجنونة يا سلوى

فإن لم يقلها سيراوده ذاك الخاطر.. وربما ذيله بنظرة اعجاب.. وربما أيضا راوده شىء من القلق انتهى بتلك النصيحة

- سلوى.. أنا أعلم من أى نبع صاف تستلهمين أفعالك... لكن غيرى لا يعلم.. ولا تنسى الصحافة..

وستومىء له ونظرة حب تزغرد في عينيها تتوسطها عبارة:

- سمعا وطاعة يا أستاذى..

لكن ذلك السيناريو الجميل تلاشى حين رأته يجرجر أقدامه فى تثاقل.. ويلقى بجسده على أول مقعد.. شهقت فى فزع: - ماذا بك يا رمزى..؟

كانت خلايا الوجه منسحقة تحت وطأة ألف عام من الإرهاق.. قال ويداه تتعثران فى فك رباط العنق : - يريدون اذلالى يا سلوى..

تفزع نحوه.. تعاونه فى فك ربطة العنق.. - من ..؟!

- حزب رفقى

- رجال الأعمال ..؟!

- يريدون ألا أتنفس إلا بإذن كتابى من مجلسهم.

فى شفقة: - هون عليك يا رمزى.. استبدل ملابسك واسترح قليلا.. وفى المساء نجلس ونتكلم..

يلاحظ الرباط المعقود حول ذراعها.. يتطلع إليها فى تساؤل تحاول إجهاض مشاعر الفزع فى ثناياه

- خدش بسيط من مقص الأظافر ..

تهاتف أخاها رفقى.. تطالبه أن يأتى .. يعتذر:

- بعد ساعة سأتجه إلى المطار.. رحلة عمل لمدة يومين.. حين أعود سأمر عليك..

لا تقوى على الانتظار، تسأله بحدة
- ماذا تريدون يا رفقى من الرئيس..؟!
يفصل الصمت بينهما لحظات.. وكأنه كان يوازن بين عدة اختيارات..وأخيرا اختار:
- رغم أن هذا ليس بالحديث الذى تصلح له الهواتف.. إلا أننى سأجيبك بلا مواربة.. إذا استمرت الأمور على ما هى عليه فالكارثة ستحل بنا جميعا..!!
- اسمع يا رفقى.. الأمور سيئة بسببكم أنتم.. ولنعد للوراء..منذ ٣٠ عاما كنت أكثر الرافضين لرمزى زوجا لى.. اتهمته بالبلاهة.. وأنه يعيش فى أوهام المراهقين.. وأننى معه سأجوع.. وحين أصبح رئيسا كنت أعلى صوت فى جوقة المهللين .. وحين علا صوتك.. وانتفخت جيوبك..
قاطعها فى حدة..
- سلوى..أنت أختى الكبرى.. كنت لى مثل أمى.. سأرد لك الجميل بنصيحة: البلد تغرق ..رجال الأعمال وحدهم القادرون على انقاذها.. ليس كثيرا أن يكون رئيس الوزراء منهم... وأن يصحب الرئيس فى كل جولاته مندوبا من مجلسهم... وأن ..
تغمغم: - كأنك تدبر إنقلابا على زوجى يا رفقى..
- ليس انقلابا يا أختى.. لكن لدى الشعب الذى تحبينه ونحبه مثل يقول (اعطى العيش لخبازينه) ..
فى سخرية مرة:
- وأنتم خبازينه يا رفقى..؟!
- فى هذا الزمن.. نعم يا أختى..!!

***

بدا الرئيس متوترا.. مطالب مجلس رجال الأعمال أثارت ارتباكا في نواياه.. كان يود أن يظهر التشدد تجاه الأحزاب خطوة أولى نحو إعادة قبضة الرئاسة على شئون الدولة.

لكن هاهم رجال الأعمال يهددون بقلب الطاولة على اللاعب الأول.. يخلو بمستشاره قبيل اجتماعه مع رؤساء الأحزاب.. وفاجأه: - هل أخطأت يا أمين..؟

فهم أمين الراوى ما يرمى إليه الرئيس فقال فى صدق:

- لم تخطىء فخامة الرئيس.. هم الذين أخطأوا..

ينصت إليه الرئيس .وكأنه فى حاجة إلى أن يستمع إلى رأى يريحه قبيل اجتماعه برؤساء الأحزاب:

- حين استلمت مقاليد الأمور كان الجهاز التنفسى للدولة مرهقا للغاية.. وهذا أمر طبيعى مع سيطرة نظام شمولى لا يملك جهاز مناعة قويا يقاوم الفيروسات والطفيليات العالقة بجسد النظام.. الشيوعية أيضا فى العالم كانت تحتضر

قال الرئيس وهو يضحك فى مرارة:

إلا هنا .. وجدى الحناوى مازال يتنفس!!

يواصل المستشار فى حماس: آلة الاعلام الرهيبة كانت تبشر بعصر جديد لاقتصاد السوق.. اقتصاد السوق يعنى أن تدلل كل مستثمر ، تقسم له كل صباح مائة مرة أن استثماراته لن تمس.. هذا كان هو المناخ العام السائد.. لذلك كنت تصر على أن تفتتح بنفسك مشاريع رجال الأعمال... وتصحب كبارهم فى جولاتك الداخلية.. وأصدرت التعليمات للبنوك بأن تسهل لهم الحصول على مايريدون من قروض .. واتحت للأحزاب أن تقول ماليديها.. بل وتساهم أحيانا فى صنع قرارات مهمة.. بذلتم كل طاقتكم لتؤكدوا أننا أكرم أهل الأرض مع المستثمرين..!!

قال الرئيس فى مرارة: - وبقروض البنوك اشتروا القطاع العام.. ولم يسددوا إلا اليسير، أليست هذه سذاجة..؟!

- ليست سذاجة أن يثق القائد فى رجاله فخامة الرئيس..

- لم يكونوا رجالى يا أمين.. بل مافيا..!!

يسود الصمت قليلا ثم أردف فى أسى:

ـ رؤساء الأحزاب يقينا عرفوا بما دار فى اجتماع مجلس رجال الأعمال .. وسيرتدى كل منهم جلد نمر..

ـ أمامهم طريقان : إما أن يتحالفوا مع فخامتكم ضد رجال الأعمال.. وإما أن يقفوا فى الخندق المواجه..

فى سخرية: ـ لإسقاطنا..

ـ لإضعافنا.. سقوط مؤسسة الرئاسة سيغرق البلد فى بحر من الدماء.. وليس لأحد مصلحة فى هذا.. الكل سيخسر ولكن تحت مظلة الرئاسة حتى ولو كانت ضعيفة تبقى قواعد اللعبة .. يتصارعون بحدود.. ليستفيدوا بغير حدود..

وهل تظن أن ما بينهم صراعا حقيقيا يا أمين..؟ الثعبان واحد.. لكن برؤوس متعددة..!!

ـ نعم .. هذا صحيح فخامة الرئيس .. فالحزبيون فى النهاية رجال أعمال.. لكن لكل منهم هويته الأصلية التى يحرص عليها.. حتى مجدى الحناوى.. والشيخ التميمى.. صحيح أنهما حولا مقار حزبيهما إلى بوتيكات..إلا أنهما حريصان على التمسك باللافتة..

ـ اسمع يا أمين.. لدى اقتراح.. لماذا لا نؤجل الاجتماع مع الأحزاب ثم نعد لاجتماع آخر موسع يشارك فيه رجال الأعمال والأحزاب وحتى العسكريين:

ـ أخشى فخامة الرئيس أن تفسر مشاركة العسكريين على أنها اعتراف بنفوذهم فى شئون الدولة؟

ـ أليست هذه هي الحقيقة..؟ ومع ذلك لا داع لمشاركتهم..

كان عازما على أن يكون صاحب الطلقة الأولى.. التى لا صوت بعدها.. إلا شتات العجز.. يسأل مستشاره فى حيرة

ـ أى نوع من الرصاص يليق بشايلوك يا أمين..؟

وما كان لدى أمين الراوى جوابا.. حتى قبيل الاجتماع بساعات حين تسلم تقريرا من مبعوث صندوق النقد الدولى.. قال للرئيس مبتسما:

ـ فى التقرير قنابل من النوع الثقيل تفى بالغرض:

قرأ الرئيس التقرير باهتمام.. وحين فرغ منه قال فى حزن: قنابله تكفى لنسفنا جميعا ..ليت شايلوك يدرك خطورة الأمر.

وفى بدء الاجتماع لوح:

ـ هذا تقرير صندوق النقد الذى انتظرناه طويلا.. استلمته صباح اليوم...

يتصفح التقرير فى صمت طالت لحظاته ثم أردف:

ـ التقرير طويل .. بالطبع سوف نسلم نسخة لكل منكم بعد الاجتماع.. لكننى يمكن أن اختصره فى خمس كلمات .ـ ديوننا تجاوزت ١٢٠ مليار دولار..

يتطلع إلى الوجوه.. لا أحد ينزف .. مازالوا فى خنادقهم يرمقونه بصمت بارد.. يردف مبتسما فى سخرية:

ـ وكما ترون يبدو أننا استبدلنا شعارنا القديم من وظيفة وشقة لكل مواطن إلى ٣ آلاف دولار دين فى عنق كل مواطن..

ـ عفوا فخامة الرئيس .. وما رأى المندوب السامى فى هذا..؟!

فى تهكم سأل وجدى الحناوى .. ثم ألقى نظرة سريعة على الوجوه.. فهم منها الرئيس أن سكرتير حزب الخلاص يبحث عن دعم لهجمته الأولى.. أو ربما أراد أن يؤكد لرجال الأعمال أن الأحزاب أيضا موجودة..

ـ آه .. تقصد مستر بتلر موفد الصندوق.. هو بالفعل من كثرة تواجده بيننا وملاحظاته الثقيلة أصبح مثل المندوب السامى.. لكن الرجل معذور .. مكلف بمهمة ولابد أن ينتهى منها..

ـ وهل يدخل فى مهمته تلك إذلال الدولة والحط من هيبتها..؟

بدا صوت الشيخ عبد الرحمن التميمى قويا فاستحسنه وواصل

ـ أنى أخشى يا فخامة الرئيس أن يكون قصدهم من دعوة الحكومة إلى رفع أسعار المياه مثلا أن نتكاسل عن الوضوء، أو لا نتطهر بعد أن

نأتى نساعنا ..أليس غرضهم من هذه الدعوة الخبيثة هدم ديننا الحنيف..؟
صاح وجدى الحناوى مفتعلا الجدية..
ـ الدين لا يهدم يا رجل.. سوف يصدر بتلر فتوى بجواز التيمم..
علت القهقهات..فقال الرئيس وهو يضحك
ـ أحسنت يا شيخ وجدى
يردف الرئيس بعد أن هدأت القاعة :
ـ طيب.. نحن هنا لانقاذ هيبة الدولة فماذا تقترحون ؟
يتطلع نحو مقاعد رجال الأعمال :.. ماذا لديك يا رفقى..؟
يهب وجدى الحناوى واقفا.. معلقا في نبرة خطابية..
ـ فخامة الرئيس.. التاريخ سوف يذكر أننا كنا أول من حذر من سياسة الاقتراض والميول الامبريالية للصندوق..
يومىء الرئيس موافقا:
ـ هذه حقيقة.. وأنا شخصيا أتذكر هذا.. وأتذكر أيضا أنكم أول من استفاد من القروض.. أفراد من أسرتك.. ومن عائلات أعضاء مكتبكم السياسى ..أخذتم قروضا واشتريتم بها شركات الحكومة فى هوجة الخصخصة.. ألم تستفيدوا من قوانين الاستثمار ..؟! وكل فترة تشهرون افلاس إحدى الشركات..
ملتفتا للشيخ عبد الرحمن:
ـ أم أنك ترى أمرا آخر يا فضيلة الشيخ..؟!
يرد الشيخ
ـ يا فخامة الرئيس.. لم نأت هنا ليفتح كل منا ملفات الآخرين.. للكل نقاط ضعفه.. ليس أحد مستثنى من هذا ..
قال العبارة الأخيرة وهو يلتفت تجاه رفقى، وواصل..
ـ المسئول قد يكون نظيف اليد عف اللسان... فماذا عن أخيه .. زوجته.. أولاده..صهره..!!
سحابة من الغضب تعلو وجه الرئيس يكابد فى مغالبتها:

ـ أظن أنك تعنيني يا شيخ عبدالرحمن... !! عموما أراها مبادرة طيبة للمكاشفة.. وكما قلت إن المسئول قد يكون نظيف اليد عف اللسان.. ولكن المشكلة فيمن حوله.. طيب انصحني ماذا أفعل مع صهرى رفقى المنياوى. الناس هم الذين يساعدونه؟! ..ليأتينى أحدهم.ويقول إن صهرك يهددني إن لم أفعل له كذا أو كذا.. سأقدمه على الفور للقضاء..أتمنى أن أسمع عن رجل قال لرفقى المنياوى أو لإبنى لا، أقولها لكم بمنتهى الصراحة أننى أخشى على إبنى.. وأناأرى البعض يحاول توريطه فى أعمال مشبوهة..

ينتفض رفقى واقفا

ـ فخامة الرئيس .. تتحدثون عنى كأننى لص.. والله وحده أعلم كم أنا مظلوم.. العام الماضى تبرعت بمليون دولار لجمعيات رعاية المعاقين والطلاب الفقراء فى الجامعات والمدارس..

قال الرئيس ساخرا ـ تكفيرا عن أطفال المدارس والطلاب الذين أصيبوا بالتسمم من الأغذية الفاسدة التى توردها لهم..

صاح رفقى فى انفعال:

ـ لم يثبت علىّ شىء فخامة الرئيس.. موظفون فى الشركة وراء هذه المؤامرة.. وقد عوقبوا بالسجن..

يرنو إليه الرئيس للحظات فى صمت.. ثم يتوجه إلى الحضور :

ـ لماذا لا تضحكون .. رفقى العزيز قال نكتة:

يخيم الوجوم على القاعة للحظات، يكسره فتحى المعداوى رئيس حزب الأمة

ـ مع أن هذا الاسلوب فى الحوار قد يبدو جارحا.. إلا أنه فى النهاية يحقق لنا شيئا كنا فى أشد الحاجة إليه.. المكاشفة.. كما قلتم فخامة الرئيس.. جميعنا مسئولون عن الأزمة التى تعيشها البلاد... وجميعنا مسئولون عن إيجاد حل

علق الرئيس بلكنة هادئة تشى بالارتياح..

ـ كنت أتمنى يا أخ فتحى أن يكون حزبك جماهيريا.. يتناسب انتشاره مع حكمتك ونزاهتك..

ـ وهل هناك حزب جماهيرى فى هذا البلد يا فخامة الرئيس..؟!

التفتت الأنظار نحو سليم صيام.. نائب رئيس مجلس رجال الأعمال.. الذى كان يجلس قريبا من الرئيس.. إلا أنه بدا من صوته القوى.. وكأنه يريد أن تخترق رسالته جدران القصر الجمهورى لتصل إلى أسماع العالم... يردف:

ـ إجادة قادة الأحزاب لاستخدام الميكروفونات لا يعنى أن الشارع يستمع إليهم.. الناس مهمومون يا فخامة الرئيس بتوفير طعامهم وملبسهم وسكنهم.. ثلاثة احتياجات أصبح الحصول عليها فى نظر الكثيرين معجزة.. المسئولون فى الأحزاب يعرفون ذلك جيدا ويتعاملون معه بحرارة .. تسألوننى كيف.. أقول لكم بالمتاجرة بهموم الناس.. والمزايدة على جوعهم وعريهم..!!

تلبدت وجوه رؤساء الأحزاب بالانزعاج والقلق.. لا أحد يجهل أن الملياردير سليم صيام هو الرجل الأول فى مجلس رجال الأعمال.. وأنه هو الذى دفع برفقى المنياوى إلى رئاسة المجلس لاستثمار علاقة المصاهرة مع الرئاسة.. وحين يهاجم الأحزاب الآن وأمام الرئيس .. فهى الطلقة الأولى فى حرب مباغتة حتى هذه اللحظة مجهولة الدوافع..

قال وجدى الحناوى ساخرا:

ـ لا أدرى ما علاقة تجار الشيبسى والكمبلوزنات بالسياسة..؟!

وقال الشيخ التميمى وهو يتطلع إلى سليم صيام.. فى توتر:

ـ ليتك يا أخ سليم تراعى آداب الحوار ولا تلقى بالاتهامات جزافا..

رماه سليم صيام بنظرة حادة.. ثم قال:

ـ لم نأت هنا يا شيخ عبد الرحمن لنستمع إلى دروس فى آداب الحوار.. هذا أمر يمكن أن تعده فى محاضرة وتلقيها فى مسجد بعد آذان العشاء.. وأعدك أن آتى لأستمع وأتعلم منك.. أما الآن فقد جئنا

تلبية لدعوة فخامته للبحث عن حل..

- والحل لدينا..

صاح رفقى المنياوى وهو يتطلع إلى.. مستشفا رد فعله.. وحين التفت نحوه فى ترقب، أردف:

- دور أكبر لرجال الأعمال .. الظروف الدولية والمحلية تحتم هذا الدور .. نحن الأقدر على حل الأزمة الاقتصادية والتعامل مع المتغيرات التى يتعرض لها العالم.

قال الرئيس متسائلا:

- وماذا عن الصندوق!! هل لديكم رد حول ما يقوله عن اقتصاد البلد.. بل عنا كمسئولين وأحزاب ورجال أعمال..؟ يردف دون أن ينتظر ردا:

- أصبحنا فى نظرهم حالة ميئوس منها.. انهم يتساءلون عن مصير القروض التى حصلنا عليها لتمويل مشاريع مخطط لها فعلا .. الكثير منها لم يقم.. أو أقيم وتعثر.. أو استمر واتبعت أساليب ملتوية حتى لا تسدد .. أنا أيضا أتساءل. أين هذه القروض..؟! النظام المصرفى مهدد بسبب الدين الداخلى.. النظام كله مهدد بسبب الأزمة الاقتصادية.. وأنا حين أقول النظام لا أعنى الرئاسة والوزارة.. ولكن أعنيكم أيضا.. أنتم جزء من النظام والانهيار يعنى انهيارنا جميعا.. ولا يجيد الحسابات من يتصور أنه يستطيع أن ينقض على الكعكة ويستأثر بها وحده إذا انهار النظام.... الآخرون لن يسمحوا له بذلك.. ثم هل ستكون هناك كعكة؟!.. ما رأيك يا رفقى..؟!

اكتفى رفقى بإيماءة موافقة صاحبتها همهمة لم يسمعها أحد... وتجولت عينا الرئيس بحثا عن حصاد لكلماته ثم توقفت عند وجدى الحناوى .. فقال:

- هل تعلم يا أخ وجدى أننى معجب بك..

استقبل وجدى الحناوى العبارة المفاجئة بتوجس صامت.. فواصل الرئيس.. - لديك قدرة عبقرية على الانتقاء والمزج... الشيوعية انتهت لكنك

مازلت تستخدم أساليبها التحتية... وأقرب أحداث مصنع الصلب.

قال الحناوى منتفضا :

ـ الحزب برىء من هذه الأحداث، ولا أستبعد أن تكون عناصر من الداخلية هى التى اشعلت الموقف لإلصاق التهمة برجالنا الشرفاء.. هذا ليس أسلوبنا أبدا فى العمل..

واصل الرئيس فى تجاهل :

ـ ورغم أنك جدير بلقب آخر الشيوعيين المخلصين إلا أنك أثبتَّ أنك أيضا رجل عولمة من الطراز الأول، وعيت التحولات التى تحدث فى العالم جيدا وقرأت ببراعة انعكاساتها على البلد.. نزلت إلى السوق منتهزا رغبة الحكومة فى الانفتاح وإغماض حارس السوق عينه.. فحصلت على قروض من الداخل والخارج باسم زوجتك وأقاربك ولم تسددوا ..!!

صاح وجدى الحناوى مقاطعا:

ـ أنا مندهش فخامة الرئيس أنكم ترددون نفس ادعاءات الصحف الأجنبية بهدف تلطيخ سمعة الشرفاء.. ولا أحد منا يجهل لحساب من تعمل هذه الصحف..

يعاود الرئيس حديثه أيضا فى تجاهل..

ـ أمامسألة أن وزارة الداخلية هى التى دبرت أحداث المصنع.. فلدى هدية لك.. لكم جميعا ...

صمت الترقب يسود القاعة، يستطرد الرئيس بعد لحظات موجها حديثه إلى مستشاره دون أن يسحب عينيه عن الوجوه..

ـ الشريط يا أمين..

يسحب أمين الراوى شريط كاسيت من حقيبته، يدسه داخل جهاز تسجيل بالركن القريب من المنصة... بدأ بهمهمات غير مفهومة.. تلاشت مع بروز صوت.. لم يكن أحد فى حاجة إلى كثير من قدح الذهن ليؤكد أنه صوت الحناوى..

ـ لا أريد قتلى.. عملية مصنع الصلب مجرد رسالة ..ليست للحكومة

فقط بل للجميع... أريد كوادر جديدة غير معروفة للداخلية.. وإذا نجحت ،، أمنحوا كل منهم مئة دولار مكافأة...

يشير الرئيس إلى مستشاره لإغلاق الجهاز.. ينتفض الحناوى فى غضب.. - هذا الأسلوب البوليسى أرفضه... كيف تسمح الحكومة لنفسها بمراقبة الناس هكذا..؟! ألم تعد فخامتكم فى أول خطاب لكم بأنه لا عودة لمثل هذه الأساليب؟!

يعلق الشيخ عبد الرحمن التميمى فى توتر:

- يؤسفنى حقا أن مثل هذه الاساليب مازالت مطبقة فى عهد فخامتكم .. كيف يشعر كل منا بعد الآن بالأمان فى بيته أو عمله أو حتى مع أهل بيته..؟!

قال الرئيس مبتسما وهو يقطف ثمار طلقته الأخيرة:

مع أن معدلات الزيادة السكانية لدينا الأعلى على مستوى العالم لكن اطمئن يا شيخ عبد الرحمن سأنبه وزير الداخلية ألا يقترب من غرف النوم!!

يردف وهو يمسح الوجوه بعينيه : خاصة غير الشرعية..!!

يلف صمت التوتر القاعة... يواصل الرئيس:

- أنتم الذين دفعتم الحكومة إلى ذلك.. وسأكون صريحا معكم... ليس هذا هو الشريط الوحيد لدينا.. وليس حزب الخلاص وحده.. تتساءلون : ولماذا لا تقترب الحكومة منكم..؟! فى أحداث مصنع الصلب اكتفينا باعتقال الفاعلين المباشرين.. وكان هناك رأى بأن يتم اعتقال قيادات الحزب.. بل لا أخفيكم أننى شخصيا فكرت أن أضعكم جميعا فى السجن.. وعلى رأسكم رفقى وعبد الطيب.. ثم أظهر فى التليفزيون وأقر بفشلى كرئيس لهذا البلد واستعدادى للمحاكمة حتى لو انتهت بإدانتى.. هذا أهون من أن أرى البلد التى أحبها تدمر أمام عينى ، وأنا عاجز عن إنقاذها.. لم أفعل... ليس خوفا .. بل قلت فى نفسى : لا داع للتعجل... ربما ثمة أمل فى الاصلاح.

ازدادت الوجوه وجوما.. فقال فتحى المعداوى:

ـ الهم همنا جميعا فخامة الرئيس.. لهذا أرى تشكيل لجنة من ممثلين عن الأحزاب ومجلس رجال الأعمال يرأسها مستشار فخامتكم لإيجاد مخرج للأزمة.

بدا فتحى المعداوى وكأنه فتح طاقة هواء نقى فى زنزانة قاعة الرئاسة التى زجوا فيها، وبدا الرئيس مجهدا.. لكن تقاسيم الوجه كانت أقل طفحا للانزعاج.. سأل أمين الراوى:ـ ماذا تظنهم فاعلون..؟!

ـ لا أحد يدرى... حتى هم.. حديث فخامتكم بعثر الأوراق.. إلا أنه من الصعب التكهن بأن مجلس رجال الأعمال سيتخلى عن طموحه بسهولة!!

ـ فكرة اللجنة جيدة.. لو أخلصوا..

ـ نعم ... يمكن أن نضع خطة تقشف صارمة تطبق على الأغنياء والمسئولين قبل الشعب، لكن للأسف أصحاب الامتيازات سيقلبون الدنيا لو اقترب منهم أحد.

ـ مافيا نحن مسئولون عن ظهورها..!!

لا يعلق أمين الراوى فيواصل الرئيس وكأنه يفكر بصوت مسموع: لو كان لدى ألف أو ألفان من الرجال الأنقياء لوزعتهم على أجهزة الدولة وفى يد كل منهم سوط.. أين أجد هؤلاء يا أمين..؟! قال أمين الراوى فى نبرة حماسية:

ـ ملايين الأنقياء ينتشرون فى البلد فخامة الرئيس..

تمتم الرئيس فى انفعال: ـ أين هم؟ لماذا لا يتقدمون؟

ـ الرجل النظيف بطبعه يخاف .. يحاول فى ظروف مثل هذه أن يبتعد حتى لا يلوث اسمه... يخشى دخول معارك مع آخر مقامر أمامه ما يكسبه وليس وراءه ما يخسره.. لذلك ينزوى..

ـ لكنك يا أمين لم تنزو أو تكتف بالفرجة.. رغم نقائك

ـ عفوا فخامة الرئيس.. أنت الذى أرسلت فى طلبى بناء على تجربتنا معا فى المنظمة القومية للشباب، ولولا معرفتى بكم... وبمدى حبكم للبلد

لاعتذرت .. لدى طموح نعم... لكنه الطموح الذى لا يتقاطع مع طموح افريكاسيا.

- وهذه مأساة.. طموحهم يتغذى على دم البلد..

بعد برهة من الصمت أردف الرئيس متسائلا فى قلق:

- والآن يا أمين؟!

- رسالتنا وصلت يا فخامة الرئيس .. وعلينا الانتظار.

كان الرد سريعا.. دعوة للاضراب قوبلت بمقاومة عنيفة.. إنتهت بقتل ثلاثة أشخاص.. عملاء الداخلية قالوا إن حزب الخلاص وراء دعوة الإضراب والمقاومة كانت من قبل أفراد أمن محترفين، يتخفون فى زى عمال فى الميناء.. ويرجح أنهم يعملون لحساب رجال الأعمال

وقال الشيخ التميمى إن أحد كوادر حزبه كان من بين القتلى

أمين الراوى فسر الأحداث بأنها تراشقات بين الفرقاء.. لكن أحدا منهم لا يفكر فى أن يبرح خندقه سواء للهجوم أو الانسحاب..

***

ـ فعلها ديفيد كوهين؟!

بدت العبارة وهى تكابد لتتحرر من بين الأسنان وكأنها حشرجة الموت.. يعاود تصفح آخر التقارير ... يلهث فى عصبية بين محطات التلفاز والراديو.. كان الخبر فى الصدارة

ـ أربعاء أسود فى جمهورية افريكاسيا.. ديفيد كوهين يتلاعب بالبورصة.. انخفاض المؤشر بمعدل ١٢ فى المئة..

تلقى الأخبار الأولى من وزير الاقتصاد، وأذهلته نبرته الهادئة

ـ أمر طبيعى فخامة الرئيس.. الهبوط حتى الآن ٥٪ لكن السوق سرعان ما تستعيد توازنها..

طلب منه إيقاف التعامل إن تجاوز الانخفاض حاجز ٨٪ ولم يفعل .. مما دفعه إلى أن يصيح فيه محتدا

ـ أى شيطان يحكم هذا البلد..؟!

وما كان تساؤله وحده.. حين أدار مؤشر الراديو سمع معلقا يطرح تساؤلا شبيها: من يحكم افريكاسيا..؟ يقول المعلق : إن رئيس الجمهورية نفسه لا يملك إجابة..!! يغلق الراديو .. متمتما فى انفعال

ـ من الآن سيعرفون من يحكم افريكاسيا..!!

يأمر سكرتيره بالاتصال بأمين الراوى..

ـ قل له أن يقطع زيارته للهند ويعود حالا..

كانت الساعة تقترب من الرابعة فجرا حين طرق أمين الراوى باب مكتب الرئيس .. لم يكن من الصعب التكهن بسبب الاستدعاء.. لقد راودته فكرة قطع الزيارة والعودة إلى الوطن حين طيرت وكالات الأنباء أخبار البورصة والانفجارات .. كان يعلم أنه فى عتمة الأحداث لا يجد الرئيس شعاعا انسانيا يسكن فى ضيه سوى فى الحديث معه أو السيدة الأولى.. لكن مع أمر كانهيار البورصة لا تتوقف حاجة الرئيس عند مجرد من

يفضفض إليه بهمومه.. بل أيضا إلى مسئول يستأنس إلى رجاحة عقله فى اتخاذ قرارات صعبة.. فإن كانت السيدة الأولى الصدر الذى يفضى إليه الرئيس بالهموم فيفيض عليه بالتعاطف.إلا أنها تنأى بنفسها عن طبخ القرارات..فأى قرارات يختزنها الرئيس من ذلك اليوم الأسود ليستشيره فيها؟!

لقد ظل طوال ساعات رحلة العودة مشحونا بعشرات الاحتمالات.. وما كان بينها هذا الذى استقبله به الرئيس بمجرد أن دلف إلى داخل المكتب..

– أمين.. أنت من الآن رئيس الوزراء.. !لم يدعه يبتلع المفاجأة.. أردف:

– أريد عصر اليوم قائمة بعشر من الكفاءات التى تثق فيها، وفى المساء يؤدون اليمين هنا... فإن كان أحد منهم خارج العاصمة ارسل إليه طائرة هليوكبتر..

رأسه تطفح بالأسئلة.. ولم يعرف بأى منها يبدأ

- عشرة وزراء فقط فخامة الرئيس..؟ الوزارة الحالية ٢٢ وزيرا..

- اعتبرها وزارة حرب.. ألسنا فى حرب يا أمين..؟!

أجرى أمين الراوى اتصالاته فى تكتم شديد.. وفى المساء كان يؤدى اليمين هو ووزراؤه.. دعاهم الرئيس إلى اجتماع لرسم سياسات المرحلة المقبلة.. لكنه قبل بدء الاجتماع حمل إليه سكرتيره ورقة... زحفت حروفها غيوم غضب على الوجه..

- هذا هو الاستقبال الأول لكم... لوزير الداخلية تحديدا..

- ماذا هناك فخامة الرئيس..؟!

سأل أمين الراوى فى توجس ..أجاب الرئيس وابتسامة مجهضة ترف على الشفتين..

- انفجار فى مقر حزب الخلاص فى مدينة تاينا الساحلية... وفاة ستة من بينهم رئيس لجنة الحزب فى المدينة.. الداخلية تتهم حزب الاصلاح

الدينى بتدبير الحادث انتقاما من مقتل أحد رجاله فى أحداث الميناء.. تقرير للشعبة الداخلية فى المخابرات لا يستبعد أن يكون الحادث من تدبير وزارة الداخلية.. لإشاعة الفوضى فى البلاد بعد التعديل الوزارى، موجها حديثه إلى أمين الراوى

- ألم أقل لك يا أمين إنها الحرب..؟! والآن..؟!

قالها وصمت .. لكن عينيه كانتا تخترقان الرؤوس فى محاولة ربما لتطهيرها من تلك الأفكار التى أشيعت عن ضعفه الإنسانى، وبعد لحظات ألقى إليهم بتوجيهاته التى استقبلوها فى قلق..

- مهمة محددة تنتظركم .. إنقاذ البلاد من المافيا الطفيلية التى تمتص دمها.. وخير بداية إلقاء القبض على كل من ساهم فى الفساد والتخريب..

فى قلق سأل وزير الداخلية:

- عفوا فخامتكم .. لكن بأى مبرر قانونى..؟!

يتطلع الرئيس إلى وزير العدل.. موكلا إليه فى نظره صامتة المهمة.. فقال الوزير:

- لدينا بالفعل قانون من أين لك هذا.. صحيح أنه لم يطبق.. لكنه أيضا لم يلغ..!!

لم ينقشع ظلام الليل إلا وكانت السجون تستقبل أكثر من ثلاثة آلاف شخص من نجوم البلد... لكن المفاجأة التى أذهلت الرئيس ورجاله الجدد.. اختفاء القيادات والتى يبدو أنها استشعرت خطورة الموقف فتوارت.. وكان من بين الذين تواروا رفقى المنياوى وعبد الطيب رمزى..

كان ذلك أول جرد حقيقى لمخازن الدولة.،. وما عثر فيها أمين الراوى ووزراؤه إلا على الفتات وذبل الجرذان..!!

***

كانت تقاريرهم اليومية للرئاسة أشبه بمشاهد متتالية فى تراجيديا اغريقية يتابعها الرئيس من مقعده بعينين أرهقهما الذهول .ويتساءل فى جنون كيف يكون على رأس الحكم طوال هذه السنوات ولايدرى أن ٧٥٪

من الاستثمارات الأجنبية والمحلية.. كان ملعبها المفضل المضاربات..؟ وحين فروا .. كان من السهل جدا أن يصطحبوها معهم.. بضغطة على زر الكمبيوتر ..!! فإن كان هذا التقرير قد أفجعه .. فإن ما جاء في تقرير ثان لم يضف لمخزونه المعرفي عن أحوال البلد الذي يحكم أي جديد.. لكنه بدا من تأثيره الموجع.. وكأنه يطلع على حقائقه للمرة الأولى..

«إن بعض علماء الاقتصاد يسمون الرأسمالية الانجلو أمريكية بالرأسمالية المغلفة نظرا لأنها تتفوق في تغليف دوافعها غير المقدسة ضمن اطار مقدس، ونظرا لتفوقها وابداعها في وسائلها التسويقية، وبعد أن توحدت وسائل عصر المعلومات مع التمويل العالمي ظهرت إلى الحقيقة الرأسمالية المعلوماتية..»

- استهلال يسوقه إلى الحقيقة القاتمة..!!

لكن نوعا آخر ساد في جمهورية افريكاسيا.. والعديد من الجمهوريات التي انفكت من التجارب الشمولية وهي الرأسمالية غير المغلفة أو المكشوفة.. وترتكز الرأسمالية غير المغلفة التي سادت بلادنا على تشكيل تحالف بين كبار رجال الأعمال والشركات المتعددة الجنسيات والحكومات والجريمة المنظمة.. وفي ظل هذه الرأسمالية المكشوفة تم تحويل ممتلكات الدولة التي جري تشييدها خلال سنوات الزعيم الراحل عبد الطيب حسن النوايا إلى ملكية فرسان التحالف الجديد..!!

إلا أن الغضب كان سيد مشاعره المتباينة حين انتهى من قراءة تقرير رئيس هيئة المال الجديد ..

- .. وبلغت أرباح ديفيد كوهين خلال ساعات التداول يوم الأربعاء الأسود مليارى دولار.. أما مؤشر البورصة فقد سجل هبوطا قياسيا خلال الأيام العشرة الماضية بلغ ٤٣ في المائة .. وقد بلغ حجم ما ضخه البنك المركزي من احتياطياته النقدية حتى الآن أربعة مليارات ونصف المليار الدولار لإنقاذ العملة الوطنية التي تعرضت للإنهيار بسبب مضاربات

كوهين.. وآخرين..

ويتذكر أنه قال لهم يوما .. حين عرج ديفيد كوهين على بورصة افريكاسيا.. إن هذا الرجل يبنى ثرواته على تعاسة الآخرين..!!

قال هذا لرئيس هيئة المال ووزير الاقتصاد السابقين.. لكن الأخير علق بأن اقتراب كوهين من أية بورصة.. بمثابة شهادة عالمية على سلامة اقتصاد البلد الذى تنتمى إليه تلك البورصة..!! ومع كل تقرير ينتصب فى داخله مارد الغضب على كوهين الأجنبى وكل كوهين محلى.. سرعان ما يسحق أعماقه بقسوة فتئن: ـ هل كنت رئيسا مغفلا يا أمين..؟!

ويجيب أمين فى ألم : كانوا بارعين فخامة الرئيس فى صياغة التقارير المرضية.. ؟!

ويحاول رئيس الوزراء أن يكون لديه ما هو أكثر من الشفقة.. يحاول أن يؤكد له أن الأحلام القديمة مازالت ممكنة..

وهي .. تجاهد أن يبقى داخلها موصدا علي همومها ودموعها .. فلا تكون أمامه سوى السيدة الأولى التى تضخ القوة والأمل فى شرايين إلفها المناضل.. وليست الأنثى المهزومة فى الإبن والحلم..

لكن تقارير الانكسار تتوالى... وماتكتبه الصحف الأجنبية ليس أقل قسوة.. وكان من بينها ما يخصها..

«ما أشد الشبه بين دموع السيدة الأولى في الحفل المدرسى ودموع أبى عبد الله الصغير وهو يسلم غرناطة..!! إن السيدة الأولى حين انتقلت إلى القصر الجمهورى تناست أن تخلف وراءها.. فى شقتها القديمة بالحى الشعبى عينيها المفطومتين على رومانسية الأبيض والأسود... ومذياعها الخشبى الضخم.. حيث مازالت تنزوى بجواره تبكى لبكائيات مطربى القبور..!!

تحاول ألا تأبه، ومن مجارى النزف فى الداخل تنسج حبال الأمل تمدها لزوجها.. تكابد لتنتشله من التخبط بين حقول ألغام الغضب.. وبحار رمال اليأس..

ـ هل كنت مغيبا وكل هذا الخراب يحدث فى البلاد يا سلوى..؟!

لكن حتى العينين حين تشتعلان غضبا تعجز ألسنة اللهب عن حجب انطفاءة التوق إلى النصر.. التى كانت دوما تشيع التفاؤل فى كل من يلتقيه..

يبثها أمين الراوى حيرته..

ـ لدى تقرير ..أخشى عرضه على فخامته..؟!

تتساءل فى سخرية قلقة: ـ أمازال لديك ما هو أسوأ..؟!

يلقى ما فى جوفه دفعة واحدة..

ـ التقرير عن احتياطات البنك المركزى..؟! محافظ البنك السابق قام باستثمار ٢٣ مليار دولار... تقريبا حوالى ٧٠٪ من الاحتياطى .. فى الخارج عبر شركة صغيرة يملكها كل من سليم صيام ورفقى وأجانب.. الشركة تعرضت لخسائر هائلة خلال مضارباتها..

يمتقع لونها بصمت الموت.. شهقت فى فزع:

ـ خبر مثل هذا قد يقضى على فخامته..

تردف بعد لحظات من الصمت.. لكنه ينبغى أن يعرف..

يقدم لها ما يود أن يكون حلا..

ـ فكرت أن أنقل إليه الخبر.. بالتدريج..

ـ كيف..؟!

ـ هذا ما أفكر فيه..؟!

بدت مترددة إلا أنه فسر التزامها الصمت بأنه موافقة على اقتراحه..

ودهش أن الرئيس استقبل ماالديه بثبات... وطلب إعداد خطة طوارئ :

ـ علينا أولا فرض سعر صرف ثابت للعملة ووضع حد لقابليتها للتحول إلى الخارج..

كانت لطمة قاسية .. امتصها تحت أخاديد الوجه فى استسلام صامت.. أما هى فعيناها كانتا تمطران الطبيب بصراخ التساؤلات:

ـ هل النتيجة مؤكدة؟

استجاب الطبيب جزئيا

ـ نتيجة اختبار الـ P.S.A عادة تكون صحيحة فى حدود ٩٥٪ لهذا لن نبدأ العلاج إلا بعد التأكد

ـ وكيف يكون هذا ..؟!

ـ عينة من خلايا النسيج البروستاتى.. إما بإبرة أو جراحة

كأنها تلقى بالمسئولية على الطبيب حين قالت فى حدة:

ـ وكيف لم نكتشف هذا من قبل..!!

ـ كما ترين سيدتى.. فخامته لا يستسلم بسهولة لنصائحنا .. حتى الفحوصات الدورية لا يواظب عليها..

تحاول كبح انفعالاتها:

ـ عفوا يا دكتور... لم أكن أقصد..!!

ـ لا عليك سيدتى.. أود أن أوضح أيضا أن سرطان البروستاتا لا يطفح بأعراضه خلال مرحلتيه الأولى والثانية

كأن ألق كل النجوم يحتشد فى عينيها..

ـ هل أفهم من هذا أنه مازال فى بدايته..؟!

ـ أو لا وجود له أصلا..!!

يقطب حاجبيه دهشة ، وفرحة عينيها تثب نحوه

ـ لدى أخبار مطمئنة

ـ هل تنازل الدائنون عن ديونهم..؟!

تضخ ماقاله الطبيب شعاعا من الأمل تحت جوانحه، لكنه يستقبله بفتور...

ـ لاأدرى ..كانت نتيجة الـ P.S.A صدمة ..لكننى الآن..

يكابد للعثور على كلمات تعبر عما بداخله
- هل للأمر صلة بأوضاع البلد...؟! هذا ماأخشاه.. أحيا ..أموت..لا فرق
.. كأن اليأس من إصلاح أحوال افريكاسيا يسلبنى الرغبة فى الحياة..
يرن الهاتف .. ترفع السماعة.. تفترس غيلان المشاعر تقاسيم الوجه.. تعيد تشكيلها آهة قهر : - لماذا يا عبد الطيب..؟
يشوح بيده فى غضب ممزوج بالصرامة.. تضع يدها على السماعة وهى تردد فى همس.. - يريد أن يطمئن عليك..
- لا ..
قالها بحدة بدت وكأنها قرار صارم بانفصام الأب عن الإبن..
تنسحب فى مرارة إلى الهاتف..
- اعطنى رقم هاتفك يا عبد الطيب ..سوف يتصل بك والدك..
تسود لحظات من الصمت كأن أحدا ينصحه بألا يستجيب..
- طيب .. مع السلامة
تضع السماعة .. وتردد فى أسى- قال إنه سوف يتصل مساء..
لم يتصل عبد الطيب.. لكنهما شاهداه عبر الـ .C.N.N، اجتماع حاشد فى باريس .. كاميرا الـ C.N.N على غير عادتها تحبو ببطء على اللافتات الضخمة التى ترثى الديمقراطية المذبوحة فى افريكاسيا.. كان عبد الطيب يعتلى المنصة.. وعلى يمينه خاله رفقى المنياوى وسليم صيام.. بينما يتبادل الشيخ التميمى على اليسار حديثا هامسا مع الحناوى..
همت بإغلاق التلفاز.. نهاها بإشارة من يده.. اعقبها ساخرا :
- اعرفت لماذا لم يتصل..؟ إنه مشغول مع خاله فى اعداد جنازة أبيه..!!
أنين نزف الانشطار الصامت يصرخ فى عينيها.. تتذكر أيام نقاء الحلم.. حين باحت له فى أمسية عشق قديمة أن أسمى أحلام الأنثى أن تكون أما لطفل من الرجل الذى تحب.. لكن الطفل انبثق من الرحم شاهرا سيفا ليخير الأم بين الإبن وأبيه!! تنهض من على مقعدها ،، تخطو نحو فراشه بهامة تتجاوز فى شموخها جبال وهن الأم داخلها.. تجاوره .. تتناول يده.. تطبع

فى حنو قبلة على أنامله.. وبغتت .. فما كانت قبلتها تضخ فقط فى شرايينه قرارها.. إنه والوطن اختيارها.. حتى لو كان فى الخندق المواجه الإبن والأخ.. فقد بدت فى ارتعاشة الشفتين على الأنامل .. وكأنها طفلة فزعة تثب نحو ملاذها الآمن ..!! ينتبهان على صياح رفقى المنياوى

(.وإننى أبشر شعب افريكاسيا المعتقل بقرب الخلاص على أيدى التحالف الوطنى بزعامة المناضل من أجل الديمقراطية عبد الطيب رمزى.

ـ هدفنا اعادة الديمقراطية ..!! الإبن أيضا يبشر بالخلاص من الأب.. لدينا برنامج للإصلاح الإقتصادى فى حاجة إلى مناخ ديمقراطى حتي ينفذ بنجاح..

ـ هذا الولد يتصرف وكأنه مغيب يا سلوى!!

فى حزن وهى تحاول مغافلته بإغلاق التلفاز :

ـ خاله رفقى سامحه الله..!!

ـ افتحى التلفاز يا سلوى..إنهم لا يتحدثون عن كوكب المريخ..

ترضخ راجية أن يدع المذيع افريكاسيا إلى غيرها.. لكنه لم يفعل.. ـ وقد أصدرت وزارة الخارجية الامريكية بيانا تعبر فيه عن قلقها الشديد للانتهاكات الصارخة التى تتعرض لها حقوق الانسان فى افريكاسيا..

تتدفق اعاصير الغضب فى أخاديد الوجه..

ـ اعطنى الهاتف يا سلوى..،

تناول الهاتف فى انفعال ..

ـ أمين .. هل تابعت نشرة الـ C.N.N..؟! الموضوع أكبر من رفقى وعبد الطيب.. إنها مؤامرة .. نعم .. نعم ... كلف وزير الخارجية بإصدار بيان يعرب فيه عن قلقنالانتهاكات حقوق الانسان فى أمريكا.. لن تعوزكم الأرقام والأدلة... لديهم مليونا سجين وتسعة ملايين مشرد.. أيضا التعسف العنصرى ضد الأقليات العرقية .. لا تنس هذا.. والعنف المنتشر فى شوارعهم..

وما استطاعت أعاصير الغضب أن توارى عن ناظريها.. انطفاءة اليأس التى تتورم فى العينين..

***

بدت زيارته الآن حتمية.. والعتمة تبتلع الوضوح حتى من تحت أقدامها..فإن كان عرافا بالنسبة لطارقى أبوابه من الأثرياء والأمراء يدسون فى يده الأموال بلا حساب ليجيب على تساؤلاتهم القلقة حول مكنوز الماضى ومجهول الآنى وما بسط فى اللوح المحفوظ عن المستقبل، فلقد كانت تراه العالم في الاقتصاد والسياسة.. ومخبوءات النفس .. يجيد قراءة ما يحدث.. واستقراء ما سوف يحدث.. كما أن حدسها يحدثها دائما أنه اصطفاها من بين طارقى أبوابه لينعم عليها بخصوصية التعامل ليس لأنها السيدة الأولى... فما حاول يوما أن يستثمر فزعها إليه لتحقيق مآرب شخصية .. لكن ربما لأن بقاياه اليقظى من زمن الحلم لا تجد نفسا انسانيا تستأنس به إلا شهيقها..

يتطلع إلى قسمات وجهها المرهقة فى شفقة .. كان يود أن يقول لها فى احتواء:

ـ ملكة نعم.. لكن على عرش آخر غير عرش زمن الوحل هذا .

لكنه تراجع.. فقالت وهى تجاهد لتشكيل ضحكة بدت على شفتيها كطفل غير شرعى..

ـ أظنك تعانى من حالة ركود الآن يا بروفيسور.. زبائنك هربوا..

قال فى مرح.. ربما في محاولة ليضفى على ابتسامتها الشرعية.ـ

– لهذا أفكر فى رفع قضية تعويض على فخامة الرئيس..

ـ أليس أفضل من اللجوء إلى القضاء أن تفكر معنا عن حل يا بروفيسور..؟ فى زيارتى السابقة قلت أن الظروف مهيأة لإتخاذ قرارات مهمة..

ـ نعم .. لكنه لم يتخذ هذه القرارات بعد..؟!

فى دهشة..

ـ كيف يا بروفيسور..؟! ألا تتابع ما يحدث!! الصحف الأمريكية تصف

قرارات الرئيس بأنها ثورة مضادة لتيار العولمة..
ـ قرأت هذا .. لكن ربما ما نحتاجه الآن قرارات مصيرية.. مدروسة بشكل جيد.. وليس مجرد مجموعة من القرارات الحادة والتى تبدو وكأنها ردود أفعال
ـ يبدو أن لديك شيئا..؟!
ـ مالدى قد لا يطيقه أحد.. بل ربما يثير السخرية.. لكن أحوالنا بالفعل سيئة.. العربة تندفع من فوق الجبل بجنون نحو هاوية لا يبدو لها قرار..
ـ فماذا لديك لإيقاف العربة يا بروفيسور..؟
ـ ربما لو وافقت أنت.. لو وافق الرئيس، نستطيع إقناع مجانين هذا البلد..!
يتطلع إليها في تردد.. تستحثه فى لهفة: ـ بماذا يا بروفيسور..؟!
يحاول البحث عن مدخل أقل إثارة للرفض..
ـ لو لديك مصنع، وليس لديك وقت لإدارته.. ماذا تفعلين..؟!
بغير تردد: ـ أبيعه..
يباغته الرد.. يتمتم: أدعو الله ألا يصل الأمر إلى هذا الحد..
يردف متسائلا:
ـ وإن كان البيع مستحيلا..؟!
ـ أبحث عن مستأجر ..
يمتقع وجهها.. وهى تشهق فى رعب: ـ هل تقصد..؟!
ـ اعلان فى الصحف المحلية والعالمية عن مناقصة لإسناد شئون الدولة إلى شركة فى مقابل نسبة من الموارد ..
ـ موارد ماذا يا بروفيسور..؟!
ـ موارد الدولة سيدتى..
ـ هل يعقل هذا ..؟!
ـ بالطبع لا يعقل.. خاصة الآن.. لكنى أراه مستقبل العالم.. بعد

عشر.. عشرين.. مائة سنة..
- كأنك مهجوس بهذه الفكرة المجنونة منذ زمن..؟!
- التاريخ كله سلسلة من الأفكار المجنونة..
تغرق في لجة من صمت الحيرة... يقطعها..
- والآن..؟!
تتمتم في عجز - لا أدرى ..!!
- إن وافقت .. سأسافر إلى باريس
- لماذا؟!
- لمناقشة الأمر مع المعارضة..
- والرئيس ..!!
- بالتأكيد سيرفض فى البداية.. لكنه رجل سياسة.. ورجل السياسة لا يقيم الأمور بمدى غرابتها.. وإنما بمدى جدواها.. تأجير البلد تحويلها إلى شركة مساهمة البديل الوحيد الممكن والمقبول من جميع الأطراف بعد أن تتلاشى..
- ألو بروفيسور.. هل شاهدت السى إن إن..؟
داهم صوت السكرتير صمتها القلق عبر الانتركوم... رفع البروفيسور السماعة منصتا في اهتمام.. تناول الريموت كنترول وأدار التلفاز.. بينما سؤال قلق يكدر صفو الحزن الهاجع فى عينيها.. لتتلقى الإجابة عبر الشاشة.. تتمتم فى نبرة مشوبة بالفزع..!
- مظاهرات..؟! هذا ميدان النصر. ماذا يجرى؟!
يتمتم البروفيسور أيضا فى دهشة
- Live... !!
- هكذا.. !! فجأة..؟ أنا آتية عبر الميدان.. كانت الأمور هادئة!!
يتلاشى الصوت.. ليطل المذيع عبر إطار بإحدى زوايا الشاشة.
فجأة تحولت جمهورية افريكاسيا إلى مزرعة نيران.. ألسنة اللهب تمتد إلي المصانع والشوارع.. وحتى القري النائية فى التخوم.. ولم تطغ على

هتافات المتظاهرين إلا دوى انفجارات في الميناء الرئيسى والطريق المؤدى إلى المطار ومحطة سكك حديد مدينة أبو فقير.. ويقول مراسلنا فى العاصمة..إن اندلاع الأحداث يرجع إلى ما تردد عن تعرض طالبة للاغتصاب من قبل أحد أفراد الأمن في الجامعة...

ـ ليس فجأة.. الملعب يجهزونه منذ وقت طويل..

تتطلع إليه فى شرود .. تنهض .. تخرج هاتفها المحمول... تضغط على الأرقام بعصبية.. تعاود الكرة مرات عديدة..

ـ كل الخطوط مشغولة، على أن أسير الآن، ينبغى أن أكون بجانبه..

ـ أقترح أن تعودى إلى القصر بطائرتى الهليوكبتر .. الشوارع الآن غير آمنة.. سكرتيرى يحمل رخصة قيادة.. سيقوم بتوصيلك..

ـ ينبغى أولا الاتصال بالقصر لإبلاغهم بذلك..

ـ سكرتيرى سيجرى الاتصالات اللازمة.. اطمئنى سيدتى..

***

بدا القصر الجمهورى وكأنه ثكنة عسكرية، يدير قائدها المعركة من فوق محفة جرحى.. تتطلع إليه بعينين مغرورقتين بالشفقة العنينة.. يضغط على كتفها بحنو وهو يبتسم...

- لا تقلقى يا سلوى.. مازلنا نمسك بدفة الأمور..!!

تعلم أنه يحاول أن يبدو قويا.. فلماذا لا تساعده بدلا من أن تشكك فى جدوى محاولته

- لو كان أحد آخر مكانك لما صدقته... أما أنت.. فهذا الأمر لا يقدر عليه سواك..

- لدى اقتراح.. لماذا لا تأخذين سكرتيرتك.. وتذهبين إلى استراحة النهر..

ترمقه بنظرة عتاب .. فيردف : كم يوم إلى أن تهدأ الأمور..

- وأتخلى عنك فى هذه الظروف..؟!

يرن الهاتف الداخلى.. يرفع السماعة.- دعهم يدخلون..

موجها حديثه إليها.. وهو يضع السماعة

- اجتماع لمجلس الوزراء ..

- سأنصرف الآن.. لكن أرجوك.. أبلغنى بالتطورات

- المهم فكرى في اقتراحى

قالت وهى تجذب مقبض الباب - بعد أن تهدأ الأمور..

قدم وزير الداخلية تقريره.. قال الرئيس فى غيظ..

- هل وصلت بهم الدناءة إلى تحريف حادث بسيط مثل هذا ..؟

يأمر بتنظيم مؤتمر صحفى يحضره مندوبو شبكات التلفزة والصحف العالمية..

- ينبغى أن يستمع الجميع إلى تفاصيل الحادث من الطالبة نفسها.. وهم يهمون بالانصراف يشير إلى وزير الداخلية لأن يبقى..

ـ هل أنت متأكد من سلامة رواية البنت..؟!

قال الوزير فى شىء من الانفعال

ـ أنا استمعت إليها بنفسى يا افندم.. روايتها تتطابق تماما مع رواية الحارس وزملائه ومع تحرياتنا..

لكن القلق لم يبرح أعماق الرئيس:

ـ ألم تتعرض لضغوط..؟!

أجاب الوزير بسرعة..

ـ على الإطلاق يا افندم.. هذه الأساليب لم نعد نلجأ إليها..

***

ابتلع الاكتظاظ البشرى كل فراغات قاعة جامعة افريكاسيا.. إلا فراغ المنصة.. تجاوزت العقارب الساعة الحادية عشرة موعد بدء المؤتمر.. وفراغات المنصة مازالت شاغرة.. وفى الساعة الثانية عشر إعتلى المنصة مساعد وزير الداخلية ليعلن عن تأجيل المؤتمر.. تهيم فى فضاء القاعة.. وكل أجواء الدولة.. همهمات الشك.. يهاتف الرئيس وزير الداخلية فى غضب:

ـ كيف تتخذون قرارا بهذا الشكل دون إبلاغى..؟

ترمق فى قلق سحابة القهر الزاحفة على وجهه.. وهو ينصت إلي الوزير.. يتمتم في وهن: ـ اصدروا بيانا بذلك..

يضع السماعة وهو يزفر كرة لهب بدت وكأنها أتت على خيوط الأمل التى كانت تتشبث بها السيدة الأولى..

ـ ماذا هناك يا رمزى..؟!

ـ الطالبة قتلت.. عثروا على جثتها بجوار كوبرى الزعيم

تتمتم فى قنوط: ـ ما أشبهنا بسمكة ألقت بها الأمواج خارج الماء.. وتنتفض على غير هدى لتعود..!!

ـ كأن هناك من يحاول أن يسرق البحر من السمكة..!!

***

« يوم القيامة يبدأ أحيانا بسوء تفاهم»

كان هذا عنوان مقال للصحفى الكبير المنصوت إليه فكرى منتصر.. وكان عما حدث

- حين لمحت الطالبة مني المغاورى أتوبيس ٨، وهى تهم بمغادرة بوابة الجامعة.. ركضت بشكل غريزى لتلحق به.. ذلك أنه وسيلتها الوحيدة إلي المنطقة التى تسكن فيها.. لكنها تعثرت وسقطت بالقرب من مكتب أمن الجامعة.. فأسرع نحوها أحد أفراد الأمن لمعاونتها.. وتصادف فى تلك اللحظة وجود طالبين ينتميان لجماعة دينية متطرفة على بعد خطوات... ولا نعرف أى شيطان رجيم هيأ حواسهما العشرة لترصد ما حدث على أنه اعتداء من رجل الأمن على الطالبة... فهبا لنجدتها.. داعين المومنين إلى الجهاد ضد عسكر الأمن الكفرة..

وسرعان ما انتشر الخبر متبلا بإضافة غريبة: أن الطالبة منى مغاورى تعرضت لمحاولة اغتصاب من قبل أحد حراس الأمن.. بينما كان زملاؤه يتابعون ما يجرى بلا مبالاة.. والمثير للتساؤل وصول الخبر إلي قرية المهجورة على الحدود بعد ساعات قليلة من الحادث، حيث تظاهر شبابها، وهاجموا نقطة الشرطة..!!لكن التساؤل الأخطر.. هذا الذى يتعلق بمقتل الطالبة منى المغاورى.. ومن السخف تصديق الشائعات التى يتنفسها الناس من أن الجثة تفوح برائحة رصاص الحكومة.. فعلي قدر معرفتي بالمسئولين في الدولة.. استطيع الجزم بأن حكومتنا ليست بالحكومة الغبية لتتخلص من دليل براءتها .. لذا يكون السؤال منطقيا لو طرح كالتالى:.. أية جهة يهمها ألا تظهر براءة الحكومة فقامت بتصفية منى المغاورى..؟!

ولا أظن أن الأمر فى حاجة إلى تفكير عميق للتوصل إلى الإجابة.. إنها نفس الجهة التى صورت فتاة الجامعة، وكأنها امرأة عمورية التى

استغاثت بخليفة المسلمين، لينقذها من جور عسس الدولة البيزنطية الكافرة..!! وفى ختام مقاله قال الكاتب:

ـ ومهما كانت أبعاد قضية الطالبة منى المغاورى إلا أنها فى النهاية تؤكد حاجتنا الماسة لبصيص ضوء فى نهاية هذا النفق الجهنمى..

ـ قانون الطوارىء.. هذا هو بصيص الضوء..

تمتم الرئيس وقد فرغ من قراءة مقال الكاتب فكرى منتصر.. فقطب أمين الراوى حاجبيه في انزعاج دفع الرئيس لأن يسأل فى لكنة تنم عن تحد خفى ـ هل لديك حل آخر..؟!

قال أمين الراوى:

ـ أظن الأمور لم تعد فى حاجة إلى قانون طوارىء فخامة الرئيس.. المظاهرات هدأت فى العاصمة والمدن الأخرى..

قال الرئيس متشككا: ـ وانفجار محطة الاتوبيس صباح اليوم.. وبعده بدقائق انفجار فى ميدان رمزى..!!

بعد لحظات من التفكير أردف:

ـ أعلم أنه قرار صعب.. أعداؤنا سيستخدمونه كسلاح ضد النظام.. لكن المسألة لن تطول.. بضعة أيام إلى أن يتم تطهير بؤر المخربين فى البلد.. التقارير تقول إن مثيرى الشغب ليسوا فقط كوادر أحزاب.. لكن منهم عملاء لدول أجنبية..

ـ لو قلنا ذلك لأشاعوا أن النظام أفلس وأخرج الحجة القديمة..

ـ نظرية المؤامرة..!! لن نعبأ.. لابد من قانون الطوارىء..!!

غشت مقالات فكري منتصر حول حادث مني المغاورى الشوارع بردا وسلاما.. فخمدت نار المظاهرات.. وإن كانت الجامعات وبعض المصانع مازالت ملتهبة بالغضب رغم مداهمات قوات الأمن والجيش المدعومة بستة وخمسين بندا من المحظورات المنصوص عليها في قانون الطوارىء.. إلا أن الرؤوس أصبحت مهيأة لأن تشتعل بالدهشة وهى تقلب حروف مقاله الأكثر غرابة فى صحافة افريكاسيا إن لم يكن فى صحافة العالم.

«.. لقد نجحت العولمة فى تقليص دور الدولة التاريخى.. وعلى المدي البعيد سوف تنتهي الدولة كلية بسبب فقدانها وظائفها الأساسية أمام طاغوت الشركات المتعددة الجنسيات ، وبقاؤها خارج اللعبة يعني الذبول حتى الموت.. هذا إن سمحوا لنا بالبقاء في مقاعد المتفرجين.. والحل لا يكمن فقط فى أن نشارك فى اللعبة.. وإنما أيضا أن نكون روادا في التأسيس.. واقتراحي بتحويل الجمهورية إلى شركة مساهمة عملاقة يضعنا في قلب الحدث.. وأمام المقود حاضرا.. أما تاريخيا .. فلن يبخسنا المؤرخون حقنا حين ينوهون بعد ألف عام إلى أنه فى الوقت الذى كان فيه الرعب الهرمون الوحيد الذي يتدفق فى جسد العالم الثالث..قفز الافريكاسيون فوق الجدل الصاخب.. قفزة رائعة قادتهم إلى سدرة المنتهى في منظومة العولمة.. حين ولوا مقاليد الأمور لشركة مساهمة...

ألا يستحق هذا المجد الذى ينتظرنا أن نتخذ أهم قرار فى التاريخ الانسانى..؟!

***

تجاوزت افريكاسيا دهشتها.. وداهمت طلائع جيوش المعارضين الكاتب فكرى منتصر.. واشتعلت الصحف وحتى منابر المساجد.. لأول مرة بسؤال تطوع الكثيرون للإجابة عليه.. لكن بلا يقين.. كان السوال يطفح برائحة الادانة لحساب من يعمل كاتبنا الكبير..؟!

وأجـاب الرجل في لقـاء تليـفـزيونى أنه يعـمل لمصلحـة الأمـة.. وقـال مـفكرون وكتاب آخرون إنهـم يشـهدون للرجل بالنزاهة وأن فكره نبت رأسـه وضميره..

لكن الطلائع المهـاجـمـة للكاتب الكبيـر تبين أنهـا بلا جـيـوش.. وأعـقب هجماتهم موجات بلا أعاصير من التساؤلات.. حيث تسـاءل المتسكعون على أرصفة البطالة هل الشركة سوف توفر لهم وظائف أو إعانات بطالة..؟ وتساءل الموظفون هل سترفع الشركة أجورهم لتتساوى بالأجور العالمية..؟!

أما الحالمون بالثراء فتساءلوا عن قواعد تملك الأسهم في الشركة..

وتساءلت السيدة الأولى فى دهشة: أحقا.. ما قاله فكرى منتصر من نبت رأسه.. أم أنه من وحى البروفيسور..؟!

وتساءل العالم فى ذهول: ـ ماذا يحدث فى افريكاسيا..؟!

وتساءل الرئيس مع العالم

ـ ماذا يحدث فى افريكاسيا..؟!

وكـان الرئيس قـد تردد فى تطبـيق بنود قـانون الطوارى علي الكاتب فكرى منتصر وجريدته.. وشجعته السيدة الأولى على ترك الرجل يكتب ما يشاء..

ـ دليل على أنك أشهرت القانون في وجه المفسدين فقط.. وليس أرباب الفكر..

لكن قلقها دفعها إلى أن تسأل رئيس الوزراء:

ـ ما رأيك يا أمين؟ هل يمكن أن يكون هذا منطقيا..؟!

كانت تبحث عن إجابة بنعم لدى رجل نظيف مثل أمين الراوى.. لتبدد مخاوفها.. وبدا الرجل حائرا.. إلا أنه أخيرا قال

ـ الطرح منطقى.. لكنه يبقى طرحا نظريا.. فالتطبيق صعب..

وقال الرئيس .. وهو يتناول جريدة من فوق مقعد مجاور

ـ هل قرأت تصريح رئيس وزراء بريطانيا..؟! إنه يحيى شعبنا على شجاعته لطرح مثل هذا الفكر الوقاد والذى بمثله يتقدم ركب الحضارة الانسانية!!

قال الراوى مبتسما: ـ ولم ينس فى النهاية أن يؤكد أن هذا شأن داخلى لا يحق لأية دولة أن تتدخل فيه..

قال الرئيس فى شىء من الانفعال:

ـ وكونجرس أصدقائه.. حين يخصص جلسة استماع حول حقوق الانسان فى افريكاسيا.. أليس هذا تدخلا فى شئوننا؟! يتناول رشفة من فنجان القهوة.. ثم يردف فى تخوف

ـ إن لم تكن مسألة الشركة هذه هم ضالعون فيها فعلى الأقل تأتى على هواهم.. الشركة لن تبالى بأمور مثل الهوية والسيادة.. ستدير الدولة بمنطق براجماتى

يفزعها ما تسمع.. هل يعى كبير العرافين ذلك..؟ إلا أن أمين الراوى بدد بعض فزعها..

ـ الفكرة بالطبع مثالية إن كان الهدف النهائى تحقيق الرفاهية للناس، الشركة تستطيع ذلك.. لو خلصت النوايا وسدت منافذ الفساد وطبقت أنظمة جيدة للتوظيف وتوزيع الأرباح ونشر الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية..

قال الرئيس ساخرا:

ـ يبدو أنك يا أمين تستعد لمرحلة ما بعد الانهيار..!!

وحده يضحك أمين.. أما هى فمازالت ضلوعها تئز قلقا:

ـ وهل مثل هذه الأنظمة ممكنة يا أمين..؟!

قال رئيس الوزراء بحذر

ـ على الورق ممكن.. الطرح يفتقد إلى التجربة

قال الرئيس فى حدة: ـ ولماذا نكون نحن فأر التجارب..؟

ـ فأر تجارب..!! تمتمت فى ذهول اندفعت من أساره سريعا، والفزع يرتسم علي وجهها حين انتفض جسد الرئيس فى رعشة فجائية.. انسحب الدم خلالها من الوجه الذى طمس الشحوب ملامحه إلا من شعاع خافت يتدلى من العينين في انكسار..

كبير الأطباء يلهب روحها بالحقيقة

- يبدو أن تقديراتنا كانت غير صحيحة.. الحظ لم يحالف الـ ٥٪..!!

تفزع إليه بعينين تطفحان بصراع عنيف بين توق للتفاصيل ورعب مما يمكن أن تحتويه تلك التفاصيل .. وبدا أن الصراع انتقل من تحت جوانحها ليكون طرفا فى صراع آخر مع مسئوليته كطبيب.. حاول أن يحسمه حين أردف

- الورم أخذ فى الانتشار .. لابد من أن نبدأ العلاج سريعا..!!

تختزلها كلماته.. لم تعد سوى عينين ترى وتبكى..وإن صرخت .. فصراخ العجز.. فالرجل الذى كان حصنا لها وللبلد .. تنهار حصونه حصنا بعد حصن.. رغم عناد أنامله المرتجفة فى التوقيع على صك الاستسلام..

والابن.. انقطع عن الاتصال بها منذ عشرة أيام.. حين تمتمت فى قهر أنه تحول إلى أراجوز في مسرح العرائس الذى نصبته المعارضة ومجهولون في باريس .. قالت له ذلك.. بعد أن أفرغ لسانه المبرمج نفس العبارات التى يرددها فى كل اتصال ..أنا بخير.. أفريكاسيا ستكون بخير..!!

إلا أن أخاها رفقى كان أكثر حكمة وصبرا من إبنها، فحين صرخت فيه أنه يبدو مثل مرشد يوظفه ضابط بوليس بسيجارة .. عاود الاتصال بها مرة أخرى ، لكن دون أن يغير من ترتيب أسئلته.. السؤال عن أحوالها .. ثم صحة الرئيس ونوايا الرئيس.. وأوضاع الرئاسة.. وأحوال البلد.. لكنه صباح أمس فاجأها بمكالمة على غير العادة.. فكل اتصالاته فى السابق كانت تتم ليلا .. وحين بدا استهلاله مثقلا بالافتعال سألته فى جفاء: - عن ماذا تريد أن تسأل يارفقى..؟!

صمت قليلا.. وكأنه يعانى من مشكلة فى صياغة الكلمات...ثم قال :

- عن صحة الرئيس..

وبغتت لكنها جاهدت لتبدو طبيعية..

ـ ماذا عن صحة الرئيس..؟ مثلما هى...

ـ محطة تليفزيون فرنسية اذاعت منذ نصف ساعة أن الرئيس يعانى من السرطان..!!

قالت في مكابرة

ـ اطمئن يا رفقى.. وطمئن كل أفراد السيرك.. الرئيس بخير..

وما كانت أجهزة الاعلام تسمح لأن يهدر منها حدث مثل هذا .. فإن كانت المحطة الفرنسية قد اقتنصت السبق.. فهناك التفاصيل المثيرة.. وبدت مؤسسة الرئاسة فى حالة شديدة من الاضطراب.. كان الرئيس يرى فى الاعلان عن مرضه ، ونقله إلي المستشفى وثيقة استسلام.. كان هذا أيضا رأى الوزراء السياديين .. كانوا يخشون من أن يترجم المتربصون الخبر إلى دعوة للنزول إلى الشارع وإشاعة الفوضى.. إلا أن أمين الراوى كان لديه رأى أخر.

ـ نكون نصف صرحاء.. خبر عن أن الرئيس يعانى من حالة إجهاد.. وقد توجه إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات.

وافق الرئيس بغير حماس، وأذيع بيان رسمى .. ضل طريقه إلى الناس وسط التفاصيل المثيرة التى توصلت إليها بعض محطات التلفاز والصحف العالمية حول حقيقة مرض الرئيس..!!

***

هرعت إليه.. لم يكن أمامها إلا سواه.. أخبرها أنه سيغادر صباح غد إلي باريس.. ولأول مرة تمتد يده عبر الفراغ السحيق الفاصل بينهما لتتجاوز تابو مجالها الحيوى.. وتهبط فوق كتفها..

ـ اطمئنى .. سأقنعهم فى باريس بفائدة المشروع..ابنك عبد الطيب.. سيكون رئيس مجلس الإدارة..!!

صرخ العذاب فى عينيها: ـ أليس ثمة حل أخر..!!

قال بلكنة المحاضر:

ـ فى علم الادارة يقولون إذا عانيت من مشكلة.. فلا تبحث عن حل

فقط.. بل أيضا كيف تستفيد من المشكلة

- ورئاسة ابنى للشركة هى الاستفادة التى تقصدها..؟!

قال وهو يسبح بعينيه فى الأفق الغربى عبر النافذة:

- من يدرى.. ربما كانت الشركة هى اليوتوبياالتى أمضى الانسان عمره يفتش عنها بلا جدوى..!!

تود أن تصدق .. تود أن تسقط «ربما» تلك من كلماته.. فلا يبقى سوى يقين من أن حلمها القديم بـ «افريكاسيا» الرفاهية والوفرة.. لم يمت.. وأنه ممكن التحقيق ولو عن طريق إدراج «الوطن» فى أسواق المال..!!

وربما ما فشل فيه عبد الطيب الكبير وخليفته رمزى قد ينجح فى تحقيقه عبدالطيب الصغير.. فيبقى اسم عائلة رمزى يتردد فى نشرات الأخبار.. ومتصدرا مانشيتات الصحف..

أهذا ما كان يقلقها..؟! الإنزواء.. سواء بسيل من رصاص المتربصين بمؤسسة الرئاسة..أو بمحاكمات ظالمة تلقى بالعائلة فى غياهب السجون.. أو فى أحسن الأحوال بقرار من الحكام الجدد بتحديد إقامتهم في منزل صغير ناء عن ذاكرة العالم..؟!

ولأول مرة تشعر بعجزها عن هز رأسها حتى بمكابرة وتردد أن الذى يعنيها الشعب .. فقط..!!

- هل تتابع مقالات فكرى منتصر..؟!

وعرف عماتسأل تحديدا.. فقال:

- رجل ليبرالى .. من أنصار العولمة.. بدون ضغوط من أحد.. حين حدثته وجدت لديه حماسا لفكرة الشركة المساهمة.. وليس لتأجير البلد.. أظنك لاحظت ذلك فى مقالاته.؟!

- وآخرون أيضا بدأوا يكتبون..

- وضع طبيعى.. نحن أمام فكرة غير مطروقة.. والمبشر فكرى منتصر.. لابد أن يجد من يؤيده وأيضا من يعارضه.. كتاب كثيرون أبدوا

تشككهم ، وبعض الناس انشطروا ما بين مؤيد ومعارض.. وكالعادة هناك الأغلبية الصامتة.. صمتها بالطبع فى صالح المشروع..

علقت فى ابتسامة ساخرة:

- من منطلق يشيلوا عبد القوى يجيبوا عبدالجبار لا فرق

يتطلع إليها فى صمت غامض للحظات ينهيه فى انفعال:

- لا دا ع لهذا التشاؤم.. افريكاسيا ستكون بخير

تتمتم وابتسامة غامضة ترف على شفتيها: نبوءة عراف

قال فى أسى :

- فى مجالك الحيوى سيدتي ترتبك رادارات العرافين..!!

لم يمض سوى أسبوع على سفر البروفيسور إلى باريس إلا وفوجئت بهاتف من إبنها عبد الطيب.. لم تخف فرحتها باتصاله.. بل وزادت فى معاتبته..

- ألم تصلك أخبار أبيك..؟!

- نعم.. وأود محادثته .. لكن أخشى

قاطعته: - لا تخش شيئا.. هو فى النهاية أبوك..

صمت للحظات.. ثم قال فى تردد

- فى الحقيقة هناك موضوع مهم أريد أن استشيرك فيه قبل مهاتفة أبى..

فى قلق: - أى موضوع هذا ..؟

- أود إرسال مبعوث عني لمقابلة أبى..؟!

فى دهشة: - مبعوث عنك..!!

قال موضحا ربما فى زهو: - باعتبارى رئيس التجمع الوطنى.. وفى المستقبل رئيس مجلس ادارة شركة افريكاسيا..!!

غمغمت فى دهشة : - فعلها الساحر..!!

- أى ساحر تقصدين يا أمى..؟!

- لا ..لا شيء..

هل تفرح..؟! فيضان القلق العنيف يزاحم الدم فى الشرايين.. وكيف

تواجه الأب بطلب الإبن..؟! استشارت أمين الراوى ..قال فى دهشة: ـ لا أصدق ما يجرى.. كنت أظن موضوع الشركة هذا بدعة كاتب.. رغم بريقها النظرى إلا أنها من المستحيل أن تجد لها موقعا على الأرض.. على الأقل فى جيلنا هذا..

ـ لا أدرى كيف نخبر الرئيس بمسألة المبعوث هذه..؟!

لم يجب على سؤالها ..ذلك أنه مازال يسبح فى دهشته

ـ والشيوعيون والسلفيون ورجال الأعمال.. الجميع يلتقون على فكرة محمومة مثل هذه خلال أيام وهم الذين لديهم استعداد للتناحر عشر سنوات حول ماذا كان إسم «أبو فصادة» قبل أن ينجب «فصادة»؟!

يتمتم فى تهكم: ـ فإذا اتفقوا ..فليس على الإسم وإنما على تأجيل القضية إلى الأجيال القادمة لتبت فيها..!!

هى مثله مأخوذة .. لكن لا مكان للدهشة مع فيضان القلق فى الشرايين.. تلح ـ هل تظنه سيوافق على استقبال المبعوث..؟!

يستجيب لإلحاحها .ويخطو خارج دهشته..

ـ نعم .. الرئيس الآن فى حالة تقبل أى نظام..طالما أن سماء افريكاسيا لن تفزعها أصوات الانفجارات صباحا ومساء..

ـ أفضل أن تكون معى

***

كان استهلالا طيبا.. أخبرته أن عبد الطيب هاتفها.. كان قلقا على صحته .. شجعها رد فعله.. سأل بحنو الأب الممزوج بالعتاب :

ـ ولماذا لم يتصل بى..؟!

ـ خشى أن ترد عليه بجفاء..!!

ـ وكيف حاله..؟!

رمقت أمين الراوى الذى كان يجلس على مقعد في الجهة المقابلة من الفراش بنظرة سريعة ثم قالت..

ـ أصبح رئيسا للتجمع الوطنى..

- أعرف..

- ورئيسا متوقعاً لمجلس إدارة شركة افريكاسيا..

أغمض عينيه للحظات لازما الصمت.. فتبادلت نظرات الحيرة مع أمين الراوى.. ثم قالت وهى تمسح جبهته بأناملها

- رمزى.. هل استدعى الطبيب..؟!

قال فى تثاقل: - أنا بخير.. فقط كنت أقارن بين الإسمين.. أظن أن الإسم الجديد مهذبا أكثر يا أمين..ألا ترى هذا..

يتبادل أمين النظرات مع السيدة الأولى..ثم قال متسائلا:

- عفوا ..أى أسماء تعنى فخامة الرئيس؟

قال الرئيس .. وهو يحاول أن يتكىء بظهره على مسند الفراش بينما تساعده زوجته..

- شركة افريكاسيا.. ألا تراه أفضل من اسم جمعية المنتفعين..؟!

كانت تعلم أنه يستمد سخريته من بئر عميق رقراق بالألم.. لكنها واصلت ربما لتتخلص من هذا العبء سريعا..

- يستأذنك فى إرسال مبعوث خاص..

قال فى هدوء: - ليفاوضنى على تسليم المفاتيح.. لكن على أن أسأل الطبيب أولا..

قبل أن يعلقا يضغط على زر بجوار الفراش .. ليدلف كبير الأطباء..

- جيد أنك هنا.. كنت سأطلب من الممرضة استدعاءك حالا..

- تحت أمرك يا افندم..

- أريد أن استشيرك .. هل صحتى تسمح بأن أحمل رجلا.. وألقى به فى النهر..!!

بدا الطبيب حائرا .. ولاذت عيناه بالسيدة الأولى ورئيس الوزراء..فأغاثه الرئيس: - صمتك يعنى شيئا واحدا.. أننى لا أقدر..

إلتفت إلى زوجته وأردف: - إذن يا سلوى أخبرى إبنك أنه لا مناص أمامى من استقبال مبعوثه.. والترحيب به أيضا..!!

لم يأت مبعوثهم من باريس.. بل من افريكاسيا نفسها.. فتحى المعداوى.رئيس حزب الأمة.. الذى لم يفر مع الفارين ولم يمس من قبل أجهزة الأمن بتعليمات مشددة من الرئاسة..

وحين استقبله الرئيس فى جناحه فى المستشفى.بادره قائلا:

ـ لماذا أنت يا فتحى؟! سؤال أعرف إجابته.. لأنهم يعلمون أن جهازى الهضمى بلغ به العجز إلى الحد الذى لا يستطيع أن يهضم أمثالهم.. يلتفت نحو أمين الراوى مردفا..

ـ اختيار ذكى.. أليس كذلك يا أمين..؟

رد أمين مؤيدا.. نعم يا فخامة الرئيس ..يعلمون أن نظرة الحكومة للأستاذ فتحى وحزبه تختلف..

تمتم فتحى المعداوى وهو يتطلع نحو الرئيس:

ـ وهذا التقدير من حكومة فخامتكم يسعدنى.وموضع امتنان من رجال الحزب..

يسود الصمت لحظات يقطعها الرئيس قائلا: ـ ويبقى سؤال ثان:

قال فتحى المعداوى: ـ لماذا قبلت المهمة..؟! أظن هذا ما تودون فخامتكم معرفته إن لم تخنى فطنتى..!!

ـ لم تخنك فطنتك يا فتحى.. لماذا قبلت المهمة..!!

لم فتحى المعداوى شتات فكره.. وبدا وكأنه يهم باعتلاء منصة..

ـ فخامتكم أكثر علما بما آلت إليه الأوضاع.. صباح اليوم انفجرت سيارة ملغومة بجوار مبنى مدرسة مهجورة .ولا أحد يعلم أين يزرعونها فى الغد.. قد تكون فى فصول تكتظ بالتلاميذ .. الناس ممزقون بين الرعب والغضب.. ولم يعد يعنيهم ماتقوله الحكومة عن إرهاب الأحزاب.. ولا اتهامات الأحزاب للحكومة من أنها وراء هذه الانفجارات لتشويه سمعة الأحزاب ..الناس يعنيهم يا فخامة الرئيس الخروج من هذا المستنقع..

وأنا أعلم تماما أن هناك أصابع أجنبية وراء كل ما يحدث .. بل لا أخفيكم سرا فخامة الرئيس أن أحد أصدقائى إتصل بى من باريس وأبلغنى أن ترشيحى لهذه المهمة كان من قبل السفيرة الأمريكية هناك حين التقت بالاستاذ عبد الطيب ووفد من المعارضة..

قال الرئيس الذى كان ينصت باهتمام: ـ ومع هذا قبلت المهمة..؟!

ـ بل لهذا قبلت وبدون تردد.. من الحكمة الان ألا نقول لا يا فخامة الرئيس .. لا ينبغى أن نقدم لهم افريكاسيا هدية ليجروا على شعبها بروفة ليوم القيامة..

ـ وبماذا تفسر يا أستاذ فتحى وقوف الأمريكان بقوة وراء المعارضة رغم أنها تضم شيوعيين ومتطرفين دينيين؟

ـ عفوا فخامة الرئيس ..ليس وراء المعارضة فى حد ذاتها. بل وراء مشروع الشركة..

يتطلع إليه الرئيس باهتمام فأردف فتحى المعداوى قائلا:

ـ الأمريكان استغلوا تفاقم الأحداث فى منطقتين وشنوا حربين لتجربة أسلحتهم الجديدة.. فماذا يمنع أن يستغلوا الأحداث فى افريكاسيا لتجربة حكاية الشركة هذه.. ألا يمكن أن يكون النموذج الناجح الذى ستنتهى إليه العولمة؟ وكما نرى فضائياتهم التى تصل إلى غرف نومنا تقوم حاليا ببرنامج تأهيلى لشعبنا.. كى يقول فى النهاية نعم لتحويل الدولة إلى شركة.. كما أنهم يمارسون ضغوطهم عبر الصندوق ونادى باريس والمعونات..

قال الرئيس مقاطعا:

ـ قل لى يا فتحى.. بغض النظر عن موقف الأمريكان وعن الصندوق والأحزاب.. هل ترى الحل فى مسألة الشركة فعلا؟!

ـ ما يهمنى يا فخامة الرئيس كمواطن إنقاذ البلاد من بحر الدم الذي ينتظرها بشهوانية غريبة...

ـ حتى لو كانت الشركة هى الحل..؟!

ـ لا أخفى عليكم فخامة الرئيس أننى فكرت فى الأمر كثيرا وعقدنا عدة اجتماعات فى الحزب وانتهينا إلى أننا يمكن أن نؤسس شركة بطريقتنا نحن.. لا بطريقة الأمريكان..

ـ مثل..؟!

ـ شركة مساهمة.. كل المواطنين يساهمون فيها .. مع وجود نسبة من الأسهم للأجانب.. ٣٠٪ مثلا، أبناء الشعب سوف يستفيدون اقتصاديا وسياسيا..القرارات تتخذ بشكل ديمقراطى من خلال ممثلى حملة الأسهم فى مجلس الإدارة..

قال الرئيس وكأنه يفكر بصوت مسموع..

ـ يبدو أن الجميع يفكر فى الشركة إلا أنا..

***

قطعت محطات الإذاعة والتلفاز برامجها لتبث خبر القرن.. كما وصفته محطة سى. إن إن.. موافقة الرئيس الافريكاسى على تحويل الجمهورية إلى شركة مساهمة..

الخارجية الأمريكية أصدرت بيانا وصفت فيه الرئيس بالشجاعة وبعد النظر.

وفى جناحه بالمستشفى حيث كان يستعد لخوض أول جلسة علاج كيماوى استقبل الرئيس رئيس البرلمان وطلب منه الاعداد لجلسة التصويت على تغيير الدستور بحيث ينص الدستور الجديد على تحويل الدولة إلى شركة ، وانهالت البيانات والقرارات على الافريكاسيين الذين بدوا شاخصى العيون فى ذهول.. وسألت السيدة الأولى زوجها فى لحظة شجن:

ـ قل لى يا رمزى..الآن عبدالطيب على رأس الأيام القادمة وافقت؟

بدت حروفه كأنها رذاذ شلالات دموع مقموعة فى الشرايين :

ـ يبدو أن افريكاسيا كانت فى حاجة إلى آخر غيرى لا يغيب إن غيبت الأحداث الناس.. ولا يضعف إن ضعف الإبن أو افترى الصهر..

تنغرس الكلمات أسنة رماح في جوانحها لتتقيح شعورا عظيما بالإثم.. وحين نقلت كلماته للبروفيسور بعد عودته من باريس..قال معلقا:
- يبدو أن زمن الزعماء انتهى.. لا قبل لأحد الآن بالأعصار القادم..؟!
لم يزد.. وخيل إليها أن رائحة ما غامضة تفوح من كلماته..
كأنه لم يشارك فى صنع هذا الذى يجرى أمامه عبر شاشة التلفاز.. تداهمه هتافات أعضاء البرلمان المؤيدين فى هيستريا، وصمت الذهول لآخرين التصقوا بمقاعدهم يتابعون مثله ما يجرى بعيون عاجزة عن لملمة المشاعر.. وهتاف يصطدم بالاذن دون أن يفلح في الولوج.
- عاشت شركة افريكاسيا حرة ديمقراطية..!!
أطفأ التلفاز .. وسحب دفترا من الدرج.. وعلى غلافه كتب:

إلى السيدة سلوى المنياوى..

خاص جدا..

(٢)

ألفت انتباه سيدتى..بدءا.. إلى أننى لم أكن على الدوام فضاء سحيقا من العتمة.. كان هناك دائما بصيص نور يملؤنى زهوا.. وأنا أكابد فى حراسة عالمك العذرى من هومات ملائكة العشق بداخلى حول أسيجة حرمك.. أو حومات شياطين اللهو بداخلى تحت نافذة مخدعك..

فإن كانت ملائكة العشق رضيت أن تلعق ألم الشوق فى معابد صمتها.. فإن شياطين اللهو لم تكف عن عوائها حتى بعد أن ألقيت بين أنيابها بأعز ما أملك.. أعز ما تملكين.. أعز ما نملك جميعا..!!

أنت أو الوطن..!!

ياله من امتحان عسير..يليق بمثلى..؟!

فكيف كانت البداية..؟!

يقول وجدى الحناوى سكرتير حزب الخلاص الشيوعى إنه لابداية للبروفيسور منذر عبد المهيمن قبل ذلك الأصيل البعيد القابع فى أحد أيام مارس ١٩٦٨، قال ذلك ضاحكا حينما كان يزورنى واثنان من رفاقه فى الحزب قبل عامين. كنا فى ذلك الأصيل المارسى نهبا للقلق.. حتى لو حاول بعضنا أن يتظاهر بغير ذلك..

ومن هذا البعض وجدى الحناوى الذى ساق لنا مصيرا سوداويا مغلفا باللامبالاة.. قال وجدى الحناوى إن أنفه تمكن من فك شفرة الدخان المتصاعد من ألسنة اللهب على الساحة.. فسأله عبد الرحمن التميمى الطالب بدار العلوم ساخرا: وماذا قال لك أنفك أيها الملحد...؟!

لم يأبه الحناوى بتهكم التميمى.. وقال: استعدوا لمحاكمات سريعة.. سوف تلقى ببعضنا إلى الزنازين المنسية..

ـ والباقي..؟!

سأله التميمى هذه المرة بلهفة.. فتطلع إليه الحناوى في صمت.وبدا وكأنه يفكر فى استثمار اهتمام التميمى فى إلقاء الرعب بداخله: ـ إلى المقابر.

ـ إعدام..!! أعوذ بالله..!!

رددها التميمى وهو ينتفض.. وحين انتبه إلى العيون التى كانت ترمقه.. قال محاولا استعادة توازنه..

ـ حتى ولو كنا من هذا الفريق.. فهى الشهادة.. إلى الجنة بإذن الله.. أما أنت فإلى جهنم وبئس المصير..

ـ بعد ٣٥ يوما سنخرج من هنا..!!

ولا أدرى من أى مجاهل بداخلى انبثقت كلماتى..!!

ولولا نظراتهم جميعا المحتشدة فى وجهى..لقلت إن آخر قالها..

ـ ولماذا ٣٥ يوما يا كبير العرافين..؟!

ألوذ من كلمات الحناوى الموجعة بساتر زجاجي من الشجاعة..

ـ يمكنكم أن تبدأوا العد من الآن..

ـ والله أخشى من تلك الثقة التى يتكلم بها من أن يكون مدسوسا علينا..

وأدهشتنى كلمات الحناوى ..إنه يرانى واثقا من نفسى..إذن فلقد نجحت وربما للمرة الأولى فى حياتى من أن أسحق عذارى الخجل المحتشدة فى مسام وجهى.. وأن أثبت فى مكانى عاصمة لاهتمامهم..

ـ هذا يقبل منه من أن يرجم بالغيب!!

حفزتنى كلمات التميمى من أن أتوغل منتشيا بالثقة

ـ لست عميلا لأحد.. ولا أرجم بالغيب.. ولا أستطيع أن أفسر.. لكنه يقين بداخلى الآن ومستعد للرهان عليه..

اشتعلت عينا عبد الرحمن التميمى بحمرة الغضب.. وهو يصيح:

ـ وتراهن أيضا أيها الكافر..؟!

كدت أتقزم فى سروالى.. لكننى تشبثت بثباتى.. وهممت أن أرد عليه بقوة دون أن أتخلى عن هدوئى مثلما يسلك الواثقون بأنفسهم.. لكن وجدى الحناوى لم يمنحنى الفرصة وقال هازئا..

ـ مناضلون آخر زمن.. يقرأون الكف والكوتشينة..

ثم أردف موجها حديثه لى:

ـ هل أخبرتنا أيها الرفيق متى تنجح القوى الاشتراكية فى العالم من حسم صراعها النهائى مع الامبريالية..؟

نهضت مفارقا ..فرارا.. فسروها غضبا.. إذن هم يرون أن لدى كينونة تغضب.. ويثير غضبها الآخرون.. كم أسعدنى هذا.. لكننى قلق.. فمن أى بئر سحرى استمد يقينى؟! أهى محاولة متهورة من نوازع الداخل القلقة لأن أقفز من الهوامش إلى مركز الاهتمام؟ وأما كان لدىّ شىء آخر غير تلك اللعبة الخطرة..؟! بدوت وكأننى أعبر محيطا فوق حد سيف مسموم من ضفة منذر عبد المهيمن الريفى المغلول بخجل وهنه.. وذكرى خرس عجزه عن مقاومة ابن الخالة.. وهو ينزع عنه سرواله فى ليالى الطفولة اليتيمة.. إلى ضفة أخرى ثرية بحضور منذر عبد المهيمن الذى يقول فينصت له الاخرون باهتمام..

وقبل واقعة التنبؤ ما كانت أسئلة دواخلهم مستعصية على فهمى.. بل جاهر أحدهم: ـ ما الذى ألقى بطبيب مثلك فى هذا المكان..؟

كانوا مهذبين وهم يصفوننى بالطيب.. لكن ذلك لم يخدعنى أبدا.. كنت أعلم أنهم يقصدون أن شخصا مثلى ترتجف خلاياه رعبا من أن يَحُول أحدهم بينه وبين شهيقه التالى ولا يكف عن الالتفات للخلف مذعورا من أن يصفعه أحدهم على قفاه.. مهزوز مثلى.. ما شأنه والمظاهرات والنضال ضد السلطة..؟!

وهم بالطبع محقون.. فزملاء الدراسة لم يعهدوا لى مكانا سوى آخر المدرج فى أوقات المحاضرات أو غيرها.. ولقد هالنى فى ذلك الصباح المارسى البعيد أن آخر المدرج ليس بالمكان المناسب.. ولا كل

الجامعة المشتعلة بنار غضب الشباب والمضغوطة بقوات الجيش والشرطة.. ولعنت أستاذ علم النفس الذى تعامى عن نذر الحرب المتطايرة منذ عدة أيام بين الطلبة والسلطة واختار ذلك الصباح المجنون ساحة لاختبارنا.. وانسحقت بين خيارين مهلكين ..إما أن أبقى فى مخبئى بآخر المدرج مترقبا مداهمة رجال الشرطة لأوقع بأناملى المنتفضة ما يبسطونه أمامى من أوراق تتضمن اعترافاتى بقيادة تنظيم مسلح يهدف إلى قلب نظام الحكم..!! «للأسف سيدتى تعاقب ثمانية رؤساء وزراء.. وثمانية عشر وزيرا للداخلية ومازالت تلك النماذج من الأوراق تكتظ بها مخازن الوزارة بنفس العبارات.. ولا تختلف ورقة عن أخرى إلا فى أسماء المتآمرين التى تملأ بها الخانات المخصصة لذلك.. أتمنى سيدتى أن تنصحى ابنكم الكريم عبد الطيب رمزى.. وقد آلت إليه الأمور باعتباره رئيس مجلس إدارة الشركة أن يشعل النار فى مخازن وزارة الداخلية.. ويستبدل بتلك النظم البشعة نظام أكثر إنسانية فى التعامل مع رعايا الشركة.. وحتى خصومها..»

وعذرا سيدتى إن كانت ملاحظتى السابقة قد نأت بى عن ذلك الصباح المجنون.. وعودة لخياراتى المفزعة .. فكان ثمة خيار أخر.. أن أتلبس فى حلم يقظة شديد التركيز طاقية إخفاء وأشق طريقى إلى البيت غير عابىء بدروع الجيش أو عصى قوات الشرطة الكهربائية..!! وما كان اختيارا حين زحفت نحو بوابة الجامعة وعيناى تتقافزان فوق العربات المدرعة المتراصة فى نهاية الشارع.. بدوت مثل فأر ألقى إلى ثعبان فى قفص.. فظل الثعبان يلهو معه بضع لحظات.. ثم فتح فمه ليقفز فى داخله الفأر..!! عبرت الشارع الرئيسى.. وتواريت فى شارع فرعى.. كانت قوات الجيش لا تكف عن الزئير.. ربما ليخترق زئيرهم أسوار الجامعة طوفانا من الرعب يجهض أية رغبة لدى الطلاب فى الاندفاع خارج الأسوار.. لكننى فوجئت بالشوارع الفرعية تقودنى إلى شارع الجامعة ثانية..!! وبدا أن زئير الجيش فشل فى إجهاض جنين الغضب حيث اندفع آلاف الطلاب

إلى الشـارع.. كـان هدفـهم كـمـا سـمـعت ذلك الصـبـاح هو ذاته الهـدف المتوارث جيلا بعد جيل.. الوصول إلى ميدان النصر فى قلب المدينة.. لكن التعليمات الصـارمة والمتوارثة أيضا جيلا وراء جيل فى أجهزة الأمن بدت منسوخة على وجوه الجنود أن يجعلوا السـاحة الامامية للجامعة مقبرة لهؤلاء الطلاب إن فكروا فى اجتيازها..

ومثل طلائع أجيال سابقة ثائرة بصدق أو مشحونة أكثر مما ينبغى أو تقمصتها غريزة القطيع للحظات اندفع مئات الطلاب نحو السـاحة لينقض الجنود عليهم ضربا بالهراوات بينما تساقطت القنابل المسيلة للدموع على الجـمـوع فى الخلف فـتـمزقت وانفرطت فى اتجـاهات شـتـى.. ووجـدتنى مدفوعا مع بعضهم فى الشارع الجانبى الذى لفظنى منذ لحظات..

وداهمنى صياحهم الهيستيرى فزعا سلب الحياة من كل خلاياى إلا الساقين.. حيث تحولت إلى مـجـرد قدمين تركضـان بـجنون مثلهم.. لكن نبض الحـيـاة دب فـجـأة فى الرأس حين سـقطت طالبـة أمـامى.. يحـتل صفحة عينيها الصافيتين وحشا من الفزع يتورم استبداده بالكيان النحيل حين اندفـعت من زقاق ثلة من الجنود .. يلوحـون بهراواتهم .. توقـفت عن الركض .. قـررت أن أتمرد على سرب الفـزع.. لم يكن قـرارا.. فـمـهزوز مثلى منعه الخجل من أن يقاوم ابن الخالة وهو ينزع عنه سرواله فى سنى الطفولة اليتيمة لا يمكن أن يفكر ويدبر وينتهى إلى قرار بتقديم يد العون لفتاة حتى لو كانت تنتظر فى فزع انسحاق جسدها تحت هراوات السلطة ..لم يكن قـرارا.. بل ومـضـة.. ربما لا تختلف عن ومـضـة التنبؤ بالإفـراج عن المعتقلين..

اندفعت نحو الفتاة .. سـحـبتـها من رقدتها .. بدا جسـدهـا فى ثقله وكأن الحياة هجرته .. أو مثل الفأر الذى شلت غريزة البقاء تحت جلده وأصبح يتلقى تعليماته من رأس الثعبان..!! لكنها أخيرا استجابت لى.. نهضت.. ركضت .. حاول أحـدهم أن يتبعـها ..ألقـيت بجسدى أمـامه.. تعثر ..سقط.. نهض.. رمقنى بنظرة اكتظت بتوق وحشى للانتقام.. رفع

هراوته عاليا وهوى بها فوق كتفى .. الضربات تتلاحق .. شعرت بخلاياى تنفك.. تتطاير فى الفضاء.. تنتشر فى أرجاء الكون .. لكننى مذهول .. لم أكن خائفا.. هذا ما أتذكره جيدا قبل أن يتوقف الرأس عن ضخ الحياة فى الحواس واندفاعات الألم فى الجسد.. رغم تلاحق الضربات الكهربائية..

سألونى من تكون؟ قلت لهم ببكارة الشهقة الأولى للإدراك.. منذر عبد المهيمن..؟! صرخوا فى وجهى : ليس عن اسمك نسأل.. من أى صنف أنت..؟! لم أفهم.. وحين فهمت .. اهتز داخلى .. شعرت أننى دون الآخرين المتخمة بهم ساحات المعتقل.. جميعهم مصنفون.. أما أنا .. فشلت فى حشد شجاعتى لأبدى خاطرا جال فى ذهنى فى تلك اللحظة .. لكننى نجحت بعد ذلك في مواجهة المعتقلين فى الجهر بهذا الخاطر حين سألنى أحدهم عن تصنيفى .. قلت له

ـ وهل ينبغى للمرء أن يؤطر حتى يليق بآدميته..؟

قال أحدهم: ـ كلنا آدميون..لكن الوطنية مرحلة لاحقة وحتمية.. أعنى أنها ترتبط عضويا بكونك إنسانا..

وكان يروقنى هذا.. أن أكون طرفا فى حوار يجذب اهتمامهم

ـ أظننى وطنى جدا.. دون تصنيف..

قلتها بحدة.. كأننى أخوض معركة معهم.. ربما لأوارى ضعفى الكامن داخلى.. وربما لانعدام خبرتى فى الحوارات لكننى لم أكن عديم المعرفة..

لقد سجننى خجلى منذ صغرى بعيدا عن أعين الآخرين.. كانوا يفسرون عزلتى بأنه انكسار الطفل بعد الرحيل المفاجىء لأبويه فى حادث سيارة وشعوره بالغربة فى بيت خالته الواهنة أمام زوج .. زفرة غضبه تكفى لإشعال النار فى نصف بيوت القرية..

«كان ابن الخالة الذى أشاركه الفراش قد ورث عن أبيه – لسوء حظى– غلظته وطغيانه، دون أن يتيح للأم أن تمنحه شيئا من طيبتها

ووهنها.. إلا أنه كان يراودنى خاطر آخر فى تلك الليالى البعيدة من أننى محظوظ لأن الله خلقنى ذكرا وليس أنثى .وإلا كان عبث ابن خالتى بسراويلى ليلا قد وصم جسدى بفضائح تنبذ بسببها الفتاة طوال العمر.. أو تقتل إن كان أهلها رحماء بها..!!»

وما كان أمامى سوى الكتب لأملأ خواء عزلتى بالحياة.. كل الكتب التى تصنفهم قرأتها.. لكنى كنت أفتقد الشجاعة لأن أصنف نفسى.. كنت أظن أن المصنفين تجرى فى عروقهم دماء ليست بلون دمائنا .. وأن رؤوسهم مكتنزة بفكر لا قبل لرؤوسنا به.. لذا كان انتشائى عظيما وأنا أتابع جدلياتهم واكتشف أنهم لم يأتوا على إسم لم أقرأ عنه أو حدث تاريخى لا علم لى به.. وكان الطفل المقموع بداخلى يتراقص طربا وعيونهم تتابعنى فى دهشة وأنا أذكر معلومة دقيقة عن حادث بسيط فى حياة مفكر.. أو زوجة رحالة.. أو عادة ليوليوس قيصر لم يسمعوا بها من قبل.. لكن كان يكفى أن أحيد عن الصواب فى معلومة ما أو حتى يجمعون على أننى أخطأت حتى يعود الطفل المقموع إلى سجنه وهو يقطر خجلا!!

حدث هذا خلال جدل دار حول أسباب الهجوم الذى تعرض له الكاتب الروسى الكبير ديستوفسكى بعد إلقاء خطابه فى مهرجان تكريم أمير شعراء روسيا الكسندر بوشكين.. فى يونيو ١٨٨٠ حيث قلت إن سبب الهجوم يرجع إلى ما ذهب إليه دويستوفسكى فى خطابه من أن الأمة الروسية أمة متنورة تجاوزت التخلف بتبنيها تعاليم المسيح.. إلا أن خصوم دوستوفسكى انتقدوا آراء الكاتب الكبير.. وذهبوا فى ردودهم إلى أن روسيا أمة جاهلة ولن تقوم لها قائمة.. ما لم تعالج وتضخ فى شرايينها جرعات من الحضارة الغربية ، وفوجئت بزميلى فى كلية الآداب فاروق عباس السيد بدوى ـ هو نفسه الأديب الكبير فاروق بدوى بشحمه ولحمه ولزوجة ادعاءاته ـ فوجئت به يزجرنى بسخريته العدوانية التى لم تبرحه حتى الآن..

ـ أهذا ما قاله لك الشيخ أبو جهل فى كتاب العزبة..؟

تقزمت خجلا تحت جلدى.. خاصة وهم يومئون برؤوسهم مباركة لما ذكره من أن الخلاف كان يعزى إلى قضايا أدبية.. لا سياسية .. وكان أول فعل لى عقب مغادرة السجن. التردد على المكتبة الجامعية.. والبحث عن مطبوعات تتعلق بالأدب الروسى فى تلك الفترة.. حيث إننى لا أتذكر على وجه التحديد أين قرأت هذا الذى قلته فى السجن.. عن ديستوفسكى.. وتهللت أساريرى وأنا أعثر على السلاح الذى سيعيد دمى المهدور فى السجن إلى شرايينى..

وأى سلاح.. إنه مذكرات أنا غريفوريفنا دويستويفسكايا.. زوجة دوستوفسكى.. والتى صاحبته فى رحلته من بطرسبرغ إلى موسكو لحضور مهرجان التكريم.. استعرت المذكرات .. وشرعت أبحث عن فاروق بدوى.. وكم كانت سعادتى هائلة حين عثرت عليه فى الكافتيريا وسط مجموعة من الطلاب والطالبات ينصتون إلى بطولاته فى السجن.. ألقيت التحية وألقيت المذكرات أمامه على الطاولة.. وقلت له: اقرأ هذه..

ولم أدع له فرصة ليرد.. ولا لبوادر اضطراب داخلى أن تتشكل وتتعملق ماردا يحول دون أن أرد له صفعته .. ـ هذه مذكرات زوجة ديستوفسكى .. كانت حاضرة معه مهرجان إزاحة الستار عن تمثال بوشكين ، واستمعت إلى خطابه، وقرأت ما وجه إليه من انتقادات..

وبدلا من أن يتناول الكتاب... أزاحه جانبا.. وقال موجها اهتمامه للآخرين..

ـ تلك مشكلة تربية الريف.. الناس هناك يربون أولادهم على القيم النبيلة.. هذا صحيح .. لكنهم لا يعلمونهم شيئا مهما.. الفعل المناسب في الوقت المناسب ولو لاحظتم أن هذه كانت مشكلة زعمائنا الذين ينتمون إلى الريف

اختلطت حمرة الخجل والغضب فى وجهى.. وشعرت يدى ترتعشان حين قال موجها حديثه لى.. ـ بالأمانة يا منذر.. هل هذا هو الوقت

المناسب للحديث عن الست أناعزيفو..

وتباطأ لسانه عجزا عن قراءة الاسم فتطلع إلى الغلاف - وواصل - ريفنا دوستويفسكايا.. ألا ترى البلد تشتعل بالغضب..؟! ليتك تستفيد من وجودك فى العاصمة.. وتتعلم كيف تختار الوقت المناسب لما تود أن تقوله..

أمطرتني عيونهم بخليط من نظرات الشفقة والاستهزاء.. وكدت استجيب لحركة قدمى اللا إرادية. وانسحب . لكننى لزمت مكانى وكابدت فى لملمة حروف المقاومة.

– أعدك بأن أعمل بنصيحتك .. ولكى تتضاعف استفادتى اقترح أن تبحث لى عن مسكن في حارة الغوازى.. !! أليس هذا إسم حارتكم.. أم ما زلت تدعى كما كنت تفعل فى السجن أن لديكم فيللا على الكورنيش!!

واستشرت ثقتى فى قدرتى على سحقه فأردفت ملتفتا إلى جلسائه :

– لو كنت مكان الأخ فاروق لشعرت بالفخر، فنصف الغوازى فى هذا البلد تخرجى من حارته!!

وعفوا سيدتى مرة ثانية وأتمنى أن تكون الأخيرة.. لسطورى الاعتراضية.. واسمحى لى بعودة مهمة إلى المعتقل.. حيث سرت شائعة قوية عن قرب الإفراج عن المعتقلين فى الأحداث الأخيرة.. وكان مصدر الشائعة طالبا يعمل عمه فى سفارة دولة كبرى.. قال إن عمه لمح له بذلك خلال زيارته له، مأمور السجن وكان رجلا طيبا، لهذا أحيل للتقاعد مبكرا..!! لم ينف ولم يؤكد!! لكن الانظار عادت لتحلق حولى.. قال أحد الطلاب مداعبا عبدالرحمن التميمى:

- إذا صدقت نبوءة منذر .. فهذا يعنى أنه رجل بركة ينبغى أن تضموه إلى صفوفكم..!!

- وليشيدوا لى ضريحا.. ويضعوا به صندوق نذور من الآن .. لأضمن مستقبلى..

وعلق وجدى الحناوى - إذن أنت داخل على طمع..!!

صدقت النبوءة.. ففى صباح ابريلى حار اهتزت جدران السجن فجأة

بصيحات التهليل «إفراج.. إفراج» وعرفنا أننا سنغادر السجن بعد ساعات.. وفاجأنى الحناوى بعناق حار .. ثم التفت حوله وهمس فى أذنى مدعيا الجدية

- مارأيك أن تنضم إلينا..؟!

قلت ضاحكا:- لكنكم لا تشيدون أضرحة..؟!

عاد إلى الالتفات حوله مصطنعا الحذر.. وقال

- لدينا وظيفة لك أهم من الضريح.. قارىء أفكار المباحث..

وحين لمح التميمى على بعد خطوات قليلة قال موجها حديثه للحناوى:

- أولا نبوءته لم تصدق.. فالشهور عند الله هى الشهور الهجرية.. وليس فى الشهور الهجرية شهر يزيد عن الثلاثين يوما.. بل أن شهر محرم الذى انتهى منذ عدة أيام كان تسعة وعشرين يوما.. وهو قال ما قاله فى الثانى من مارس .. واليوم السابع من ابريل.. أى اليوم هو السادس والثلاثون لمحاولته التعدى على قدرة اختصها الله لنفسه..

فقال الحناوى ضاحكا:

- ألم تجد يا شيخ عبد الرحمن سوى منذر الغلبان لتحبكها معه..؟

- هذا أمر خطير.. والدقة فيه مطلوبة

قال الحناوى ساخرا: - يا شيخ عبدالرحمن.. مثلك يحسب الأمور بالمواسم .. ويصنم تاريخا أخطاؤه بالعقود.. لا ينبغى له أن ينصب المشانق لهذا الطفل النقى.. يكفى أنه آتانا بالبشارة.. وكنا نظن أننا على أبواب القبر..

قال التميمى فى لكنة عاجزة عن مواصلة الحوار..

- ومن يناصر راجم الغيب سوى ملحد مثلك..!!

ومضت عينا الحناوى ببريق فجائى .. وبدا وكأنه لم يسمع كلمات التميمى القاسية.. وقال

- ما رأيك يا شيخ عبد الرحمن فى اسم البشير..؟!

أردف الحناوى دون أن ينتظر رد التميمى :

ـ أول ما ينبغى أن نفعله بعد الإفراج.. أن نتوجه إلى السجل المدنى ونقدم طلبا بتغيير اسم منذر إلى البشير.. انصرف الشيخ التميمى ملوحا بيده غاضبا وهو يتمتم

ـ أعوذ بالله.. وتريد أن تسميه أيضا البشير..!!

قال الحناوى ضاحكا: ـ بل الشيخ البشير..!

هل حانت لحظة ميلاد منذر جديد لا يرتعش إن لفحته أنفاس الآخرين.. لا يخاف العالم.. بل يطويه تحت جناحيه..؟! كان مؤشر الثقة يواصل ارتفاعه .. وقصة النبوءة تسرى فى مدرجات الكلية وبين كافتريات الجامعة، ويبدو أن لقب «الشيخ» الذى جاء على لسان الحناوى نكاية فى التميمى أصبح حقيقة.. وأظن أن حمرة الخجل كانت تزحف على وجهى إن دعانى أحدهم بالشيخ أمام الطالبات .. لكننى كنت أقاوم ألا يهبط مؤشر الثقة من عليائه.. فإن كان الداخل مازال يعانى من شىء من الهشاشة فلأ كابد كى لا يتصاعد اضطرابا على لسانى.. لكن قلقا جديدا ومرهقا بدأ يقتحمنى.. انهم يطالبوننى بقراءة الفناجين والكفوف .. لم أمانع، بل كنت أراها وسيلة أخرى لأن أظل حاضرا فى المركز ، لكن ماذا لو فشلت..؟!

وكان الحلم الذى يلازمنى وجود كلمة مثل «لا» فى قواميسى..أشهرها مصحوبة بصفعة على وجه ابن خالتى إن عبث بسروالى ليلا.. وفى وجه عمى وزوج خالتى اللذين يتصارعان من أجل السيطرة على الأفدنة الثلاثة التى خلفها لى أبواى.. وليست «لا» وحدها الغائبة من قواميسى.. بل كلمات مثل «أريد .. وأستطيع .. وهذا من حقى.. ويقينا..!!

كانت قواميسى دائما فقيرة..إلا من كلمات تفقد حروفها اتزانها حين تعتلى شفتى.. فهل تخصب نبوءة المعتقل قواميسى لتنبت كلمات اليقين والقوة..؟

ولقد دفعنى القلق من الفشل أن أجرى تعديلا فى قراءاتى لتشمل هذا المجهول فينا.. الحدس.. الأحلام.. الدماغ.. دواخلنا ، وفى الخارج

الأبراج والتنجيم والكائنات الخفية التى تشاركنا الكون.. وشجعنى على التوغل ما قرأته فى كتاب عن الدماغ البشرى.. أن خمسة فى المئة فقط من طاقات المخ هى التى تعمل..!! إذن فليس كل ما يقال عن التنجيم .. عن الظواهر الانسانية الغريبة شعوذة ودجل.. لماذا لا تكون لتلك القوى الخفية التى تشاركنا الوجود تأثيرها فيما يحدث لنا وحولنا..؟! ولماذا لا تكون نبوءتى فى المعتقل ولدت من رحم آخر غير الصدفة..؟! ومضة من ومضات هذا المرصد الاستشفافى الموجود فى مكان ما تحت الجلد . كان يعمل بكل طاقته فى الأزمان السحيقة .. يعين الإنسان البدائى فى درء الأخطار من زلازل وأعاصير وحيوانات مفترسة حين يومض لصاحبه بخاطر قرب وقوعها فيأخذ حذره.. وتلك الحيوانات التى تعوى قبيل الزلازل، والنمل الذى يصعد إلى الأماكن المرتفعة قبيل الفيضانات والسيول حتى يتجنب الغرق..؟! وأنا .. أليست-طفولتى حبلى بالأحلام التى لا يمر سوى يوم أو يومين فتتحقق..؟! ربما انحسرت تلك الظاهرة الآن.. عدسات المرصد داخلى تلبدت بضباب العاصمة.. مثلما تلبدت كل المراصد تحت الجلد البشرى بدخان الحضارة الحديثة والتى تشتعل بالتجريب والاستدلال النظرى.. فأصبح العقل سيد الإدراك ليقطع الأوكسجين عن المراصد الأخرى دواخلنا.. كل هذه الخواطر كانت بواباتى إلى عالمى الجديد، لكننى قلق.. إنهم يلحون فى أن أنبئهم أى أرض سوف تستقبل خطاهم الآتية!! والهروب يعنى أن أتشكل داخلهم شيخا محتالا.. وفى ذلك سقوطى المريع.. عودة إلى شرنقة الخجل المزرى.. لذا لم يكن أمامى سوى أن أستجيب.. وكانت تعليقات بعضهم الساخرة تنغرس فى مسام وجهى لينزف بحمرة الخجل التى أحاول مواراتها بمشاركتهم فى الضحك.. وما كنت فى حاجة إلى العديد من التجارب لأن أعرف أن عبارات المزاح وربما السخرية الجارحة التى يسوقون فيها رغباتهم فى أن أقرأ لهم الكف أو الفنجان ما هى إلا حجب يحاولون بها إخفاء موار قلقهم .. وما كنت فى حاجة إلى الكثير من

التجارب لأعى أن كل كلمة أقولها تهوى مثل مذنب فى محيط المقروء له تثير الفوضى فى يم مشاعره.. فإن اشتد قلقى من أن تفشل كلماتى فى اثارة الأنواء في الداخل تعلمت أن أعتذر

- لست مهيئا الآن..!!

- وما معنى أن تكون مهيئا يا شيخ منذر؟! سألتنى بجرأة رندة عبد الحميد.. عاصمة الأنوثة فى الجامعة..

تملكتنى رعشة فجائية. حين بسطت كفها أمامى.. وعيناى تحاولان الفرار من أناملها الناعمة المسنونة بأظافر طويلة.. زاد طلاؤها الفاقع من وحشيتها .وداهمتنى زفرات ابن خالتى الحارة فى ليالى طفولتى اليتيمة.. وصراخى المذبوح بالخجل ينزف فيضان دموع صامت على وسادتى.. ربما بلل يدى خالتى فى الصباح. فبكت عجزا عن مواجهة الإبن وأبيه الفظين..!!

- لماذا تبكى يا شيخ منذر..!!

- هه.. لا شىءيا مدام رندة..؟

سحبت يدها وهى تردد فى جنون - مدام رندة..!!

وأفقت .. شعرت بقوة هائلة تفيض داخلى.. عيناى تثبتان فى مواجهة أظافرها الطويلة المسنونة.. فى مواجهة عينيها الطافحتين بجنون الغضب.. أدرك ما كانت تكتنز به عيناى فى تلك اللحظة.. نظرات هادئة.. مفعمة بالتحدى..

- صحيح .. ماذا ينتظر من قروى مثلك أنجبته معزة فى زريبة..

هزتنى كلماتها .. لكن شعورا خفيا من السعادة مس داخلى السرى.. تشبثت بهدوئى وقلت وهى تهم بالانصراف:

- وإن أردت التفاصيل فامنحينى كفك الجميل ثانية!!

لكن الأمر كان مختلفا مع نسرين زهدى التى تبدو بجمالها الأثيرى وكأنها لا تشغل حيزا إن هلت.. ولا تفارق مكانا إن رحلت.. لقد كانت حلمى المحبط منذ أن رأيتها للمرة الأولى فى الأسبوع الأول من السنة

الأولى.. وراودنى خاطر يفوح بنشوى الأمل أن حلم منذر عبد المهيمن ما بعد المعتقل قد ينبض بدفء الحياة ثانية..!! وحين سألتنى ماذا أعنى بأنى غير مهيأ.. ترقرقت فى داخلى رغبة فى الشرح المسهب.. وكانت برفقتها صديقتان لها من كلية الحقوق..

- فى الحقيقة أنا لا أعتمد كثيرا على الكف أو الفنجان.. هما يشبهان العدسة المقعرة استخدمها فى تكثيف شتات تفاصيل تبدو غير واضحة فى مرايا ملكة الحدس داخلى..

كنت أعلم أن رندة عبد الحميد تجاورنا على المائدة الخلفية لمقعدى.. لذا قصدت أن أتحدث بصوت عال لتسمع..

- فراسة يعنى..؟!

تسأل نسرين باهتمام..

- فراسة .. حاسة سادسة.. بقايا غريزة البقاء التى كانت متأججة عند الانسان البدائى.. فتمكنه من التنبؤ بالمخاطر.. مهما كان المسمى.. ففى هذه المنطقة اللامرئية تتشكل أبجدية إدراك تفوق في دقتها ومراميها قدرة العقل ..

- إذن كان أندريه بريتون محقا فى الإلحاح فى بيانه الشهير على أن يطلق المبدعون العنان لفيضان اللاوعى دواخلهم؟!

- ربما .. لأن ما نسميه باللاوعى هو الوعى الحقيقى للإنسان

- وليس بعيدا أن يكون اللاوعى والحدس.. نفس الشىء

- أو على الأقل يشتركان فى رافد ما

قالت إحدى الطالبتين وهى تبتسم

- يبدو أنه لا مكان لنا فى جلسة المثقفين هذه..

وعلقت زميلتها .. - كنت أظن أن قراءة الكف أبسط من هذا بكثير.. عمتى تفعل ذلك دون أن تعرف من يكون اندريه بريتون هذا.

زغردت عينا نسرين ببريق خجل.. وهى تعلق:

- منذر لا يقارن بأحد..

ـ ولماذا أنت بالذات..؟!

قالتها وهى تجذب مقعدا .. وتجلس بجوارى

ـ أهلا .. مدموازيل رندة.. !!

ـ لم تقل لنا يا شـــيخ منذر.. لماذا أنت بالذات الذى تملك هذا الشيء..؟! وأردفت شارحة.. مستعينة بيدها التى تتحرك فى عصبية

ـ أعنى الحاسة السادسة أوالفراسة.. كما تسميها نسرين..؟!

قلت فى هدوء:

ـ ربما لأن أمى المعزة ولدتنى فى زريبة وتركتنى هناك.. فخمل عقلى لتنشط قوايا الأخرى.. كأى حيوان أو انسان بدائى..

انتقلت العيون المفعمة بالتساؤلات الصامتة الممزوجة بالدهشة بيننا.. لكن رندة التزمت الصمت.. ربما بدت مثلى غير راغبة فى الكشف عن جذور التوتر الذى يشد كل منا إلى الآخر..!!

وفجأة استأذنت وانصرفت بينما العيون تشيعها بنظرات الحيرة.. دون أن يدفع الفضول أيا منهن لمطالبتى بتفسير .. وبدت نسرين زهدى وكأنها تختزن فى صدرها ما هو أهم.. حين طلبت أن أقرأ لها الكف.. شعرت بالتردد. هل أستجيب؟ كانت أعماقى ملبدة برندة عبد الحميد.. واتخذت قرارى

ـ ذهنى مشغول .. ما رأيك غدا.. السابعة والنصف صباحا..؟!

رددت فى خجل وهى تتبادل النظرات مع صديقتيها..

ـ مبكرا هكذا..؟

قلت فى انفعال لأزيل ما علق فى خواطرهن من توجس..

ـ فى الصباح الباكر عادة أكون أكثر صفاء..

أومأت برأسها موافقة على غير اقتناع على ما يبدو .. ضايقنى هذا .. أن أبدو مثار ظنونها.. رغم أننى فى لحظة مواجهة مع الذات.. بعد انصرافهن .. أيقنت أن الأمر لا يتعلق بأوقات الصفو والتلبد داخلى.. فقط..؟! وخشيت ألاتأتى..كأنها بذلك تصدر ضدى حكما بالإدانة.. أننى

زميل غير صفى النوايا..

أرهقنى الهاجس قلقا.. كيف أواجهها بعد ذلك وقد اكتشفت صديقاتها مؤامرتى.. التخطيط لأن أدثرها بشىءمن الخصوصية..!! بالعارى الذى سوف يلاحقنى طوال سنوات الجامعة وربما ما بعدها.. هل يتعلق الأمر بريفيتى المفرطة..؟ ليس كثيرا .. فمن بين طلاب الريف من يتحرشون بالنساء فى الشوارع والاتوبيسات، أحدهم طالب فى كلية الحقوق ينتمى إلى قرية متاخمة لقريتى حاول أن يفعل مع طالبة فى الاتوبيس ما كان يفعله ابن خالتى معى فى الليالى البعيدة ، لكنها لم تستبدل صراخ الغضب بدموع القهر، استدارت وصفعته على وجهه ، وبدلا من أن تفيض روحه مع نزيف الخجل فى وجهه بادلها الصفعة بصفعة فأمسك به الركاب وقادوه إلى قسم البوليس.. ليمضى هناك بضعة أيام وعاد إلينا بطلا أبى أن تهينه أنثى..

أظن أن الأمر يتعلق بجيناتى ..بالصوبة التى أودعتنى فيها أمى بعد أن انسل من رحمها ابنها البكر الذى انجبته بعد اثنى عشر عاما من الزواج ولا تال له.. يتعلق الأمر أيضا بقراءاتى للشعر والذى بشهيق رومانسياته شكلت فى وجدانى أنثى لا تأكل ولا تشرب ولا تدخل دورات المياه، أهذا كان سببا آخر لتوترى فى مواجهة رندة أنثى الشارع التى تأكل وتشرب وتدخل دورات المياه جهرا.. وتوجه نداءات عبر ماكياجها الصارخ.. وملابسها الضيقة إلى النصف الأسفل لكل رجل كى يعتليها فى أحلام يقظته..؟! ألهذا أفرطت فى خصوصية التعامل مع نسرين زهدى لأنها الأنثى القرين للأنثى الفواحة بشذى الملائكة فى وجدانى .. بل هى..!!

كانت فى انتظارى.. يا لجبل القلق العائم على بحر من الوهم داخلى.. حين بدت لوحت بابتسامة تشع بوداعة مسكونة ربما بشىء من الاستكانة..

ـ صباح الخير يا نسرين.. كنت أظن أننى سأسبقك..

- صباح الخير ، بابا ايقظنى مبكرا .. هه.. فنجان أم كف؟

- مثلما تريدين.. كف..؟!

هجعت كفها فى مهد كفى.. تنقلت نظراتى فى اهتمام ما بين الكف وعينيها.. كانت رحلاتى فى العينين أكثر نفاذا..

- اينتظرنى كل هذا..؟!

قلت فى جدية: - لن ابدأ بما ينتظرك.. سأورد لك شيئا من الماضى البعيد.. إن أصبت فأنا أسير فى الطريق الصحيح.. وسأجتهد فى معرفة ماذا ينتظرك وإن أخطأت فلا داع للإستكمال..

- وماذا فى الماضى..؟!

- حادث ضخم تعرضت له.. كنت ما بين الخامسة والعاشرة تقريبا..!!

ألقت نظرة ساهمة فى الأفق.. أصابتنى بالإحباط .. كان الماضى يخلو من الأحداث العظام.. واصلت لأستحثها أن تجيب بنعم.. - حريق.. وفاة شخص عزيز جدا.. حادث مؤلم..

قالت فى استسلام وكأنها تدس بين يدى، شفقة ، مفاتيح مسامها.. - وفاة جدتى

- هل كانت علاقتك بها حميمة..؟!

- كانت الأكثر اعتناء بى.. أبى وأمى كانا مشغولين دوما فى عملهما.. وكانت هى شهقة الاطمئنان الدافئة التى تدثرت بها إلى أن توفت.. كنت حينذاك فى الخامس الابتدائى..

هل أصبت .؟! لقد كان هذا الأمر بالنسبة لى حصان طروادة الذى أحاول أن أقتحم عبره الحياة الاجتماعية.. بل ومكانا مرموقا بها .. وكنت أعلم أن حصان طروادة معرض للنسف وأنا بداخله.. لكننى فى الحقيقة لم أكن دجالا.. أو على الأقل لست مثل الآخرين.. لدى أدواتى. وإيمانى العميق بقدرتى.. بل بقدرة كل منا على فعل ذلك.. نبوءة المعتقل كانت ومضة.. فما المانع أن تتكرر الومضة بالقراءة والتدريب والتأمل لساعات فى الداخل.. أن أعيش فى مدنى الداخلية الثرية.. أزيل الصدأ

عن معالم عبقريتها الانسانية، بدأت أفعل ذلك منذ خروجى من المعتقل ، لكن هل أصبت حين قلت لنسرين عن حادث الطفولة..؟ هل هى ومضة حقيقية.. أم ملاذ سرى لجأت إليه مفعم باليقين من أن أحداً لا يستطيع الوصول إليه .. ذلك أن غالبية الناس.. إن لم يكن جميعهم .. مشحونة طفولتهم بالحوادث.. وحين يكون الحديث عنها من فم عراف.. فلابد أن ذلك يوحى للمقروء له بأنها مهمة.. ـ هل أواصل..؟!

قالت فى لهفة مقموعة بخجل مثير: ـ المستقبل..

تكثفت نظراتى فى بؤبؤ عينيها الأخاذتين بحيادهما وفوجئت بكفى تمسح صفحة كفها الهاجعة فى كفى الأخرى.. لتسرى فيها رعشة خفيفة إرتج لها قلبى وهممت بأن أعتذر قبل أن تسحب يدها .. لكنها واصلت نومها الآمن فى كفى.. بينما سحابة خجل تكسو خديها بدت فى إثارة لون الشفق حين يزدهى به أصيل قريتى الهادىء..

ـ مهنة مميزة ستحققين فيها نجاحا عظيما..!!

ـ لن أعمل ..سأوظف عمرى كله فى الرسم.. هوايتى التى أحبها..

ـ ربما هذا هو التميز..

ـ وأسرياً..؟!

رجفة توتر تحت تقاسيم الوجه.. تحتمى بضحكة قلقة: ـ نظرات عينيك لا تنم عن خير..

سحابة من القلق تكدر صفو العينين .. أردفت:

ـ أسرياً.. أعنى عاطفيا.. لن تكونى سعيدة في حياتك..!!

يزداد عنفوان تيار القلق تحت تقاسيم الوجه الذى فاض عصبية فى ضحكتها..

ـ أكمل ..كل ما تراه مستعدة لتقبله.. المهم ألا تخفى عنى شيئا.

ـ يبدو أن الأمر يتعلق بتركيبتك.. أنت مفرطة فى رومانسيتك.. موطنك الحقيقى داخلك.. لا تكفين عن الركض فى شرايينك لهوا ومرحا وقلقا ..ربما كنت محقة.. فالداخل ثرى بالجمال.. بالحياة .. بالحياة..

بالصخب .. رغم هدوء عناوينك..!!

تطل إشراقة مشوبة بالشجن من عينيها..؟

ـ أنا فعلا هكذا ..أمضى كل وقتى بداخلي .. حتى حين أكون مع آخرين

ـ ولن تبرحى داخلك الغنى إلا إلى داخل رجل غنى ليس فقط بالحب وبالأمان المنشودين من كل امرأة.. بل أيضا بغواية الإبهار الفكرى والعاطفة المجنونة .. تلك هى المأساة..!!

يمتقع وجهها بالقلق.. ـ أية مأساة..؟!

ـ الرجال من حولك كما ترين.. دواخلهم مثل المسالخ..

سألت فى اهتمام: ـ هل هذا يعنى أننى سأفشل فى زواجى..؟!

غبت للحظات فى عينيها.. وكانت تترقبنى بلهفة..

ـ طبقا لمفاهيم الناس قد لا تفشلين.. ستتزوجين من رجل مميز جدا فى مهنته.. ربما غنى.. ماديا أعنى.. وستنجبين أطفالا .. من حسن حظهم أنهم سيرثون جمال أمهم..

فيض من حمرة الخجل تعلو وجهها.. تتوارى سريعا أمام سحابة القلق..!! ـ ثم ..؟!

ـ للأسف.. فى تلك الحالة.. سيفيض نهر رومانسيتك على أرض صخرية..؟!

ـ أنت تفزعنى..!!

ـ آسف يا نسرين..أجدنى مضطرا لأن أكون معك صريحا.. كان هذا طلبك.. وهذا مبدئى..

ـ وماذا عن الاختيار..؟!

ـ بالضبط.. هذا ما وددت أن أقوله.. لكن ذلك فى حاجة إلى توظيف جيد للحواس .. خاصة السادسة منها.. حتى يكون الاختيار صحيحا..

ـ وهل من الممكن أن تخطىء حواسنا .. بما فيها السادسة .. أنا مثلا ، تصمت فجأة.. ورعشة اضطراب خفية تموج تحت سطح وجهها..

- واصلى .. ماذا تودين أن تقولى..؟!

قالت فى تردد خجل..

- أعنى ..أننى أراك مختلفا عن الآخرين .. عن الرجال الذين إن فتشت دواخلهم تجد مسالخ.. داخلك أيضا ثرى جدا بالحياة.. وبغير المألوف من الجمال والخير.. كان هذا انطباعى الأول عنك من مجرد الأحاديث التى كانت تجمعنا مع الزملاء على الكافتيريا أو من خلال حواراتك مع الأساتذة.. وأنا أثق فى رؤيتى الأولى.. ربما لأننى فنانة تشكيلية ..أرى الأشياء بعين هذا الكائن اللامرئى الذى تتحدث عنه أنت.. رؤية صادقة.. أكثر صدقا من الكاميرا التى تكتفى بنقل جمود الأشياء.. انتبه..!!

- هل يمكن .. وهذا حالى.. أن أسيىء الاختيار..؟!

- المهم أن تتأكدى أن عدسات حواسك عند الحكم على الأشياء غير مضببة .. أردفت وعيناى تجاهدان لقراءة مرايا عينيها:

- مثلما هو حالك الآن.. وأنت تتحدثين عنى..

طوى الخجل شيئا من ابتسامتها .. وبدت وكأنها تبحث عن مفر .. حين نظرت إلى ساعتها

- ياه الساعة الآن التاسعة إلا الثلث.. !! على أن أتوجه إلى المكتبة قبل المحاضرة.. وأنت ..!!

- وأنا ..؟! تمتمت .وأنا أسبح قصيدة مخملية على صفحة عينيها..

- كم أود أن أغلق قنوات اتصالى بالخارج بعد رحيلك لأنتشى بهذا الفيض الرائع الذى تلقاه الداخل..

بدت وكأنها لا تنصت إلىّ.. حيث كانت تتطلع فى قلق خفى خلفى.. ثم قالت .. وهى تهم بالإنصراف

- يبدو أنك لن تقطع إتصالك بالخارج.. بإذنك..!!

نظرت خلفى .. كانت رندة عبدالحميد تتجه نحوى..

سحبت مقعدا وجلست.. - صباح الخير يا منذر

انتابتنى رغبة فى أن أهادن .. ربما حفاظا على فيض النشوة داخلى حتى لا يتلوث بدخان حرب ما عدت بحاجة إليها..

ـ صباح الخير يا مدموازيل رندة..

تطلعت إلىّ فى تردد للحظات ثم قالت وضحكة يائسة تنفرط من بين شفتيها..

ـ مدام رندة..!!

لزمت الصمت ثانية.وكأنها تحاول أن تقرأ رد فعل ما قالته على وجهى.. لكننى جاهدت كى لا يشى الوجه بشىء فأردفت:

ـ للأسف تلك الحقيقة

واصلت تطلعى إليها فى صمت.. حيث بدت كل أجهزة التواصل داخلى معطلة إلا الإنصات

ـ أراك صامتا..

ـ استمع إليك

تظاهرت بالحيرة فى كيفية البدء.. رغم أن وجهها يشىء بأنها أمضت الليل ترتب ما ستقول ..

ـ الأمر كله كان رغما عنى.. كنت طفلة.. قاومت فهددنى بالقتل.. ولو رأيته الان لن أتورع عن قتله..

هل تكذب..؟! أهى محاولة لامتحان قدرتى على تعرية أدغالها..؟ وهل حين واجهتها بعدم عذريتها من قبل كانت ومضة صادقة لتلك القدرة..؟ أم أن الأمر لا يعدو كونه استنتاجا منطقيا لاسلوبها فى الحياة.. الملابس التى تشى أكثر مما تخفى والوجه الذى لا يعرف من الحمرة.. سوى حمرة الماكياج مهما ألقى على مسامعها من كلمات مكشوفة.. وتلك الضحكة التى انطلقت منها بعفوية حين نطق محاضر اللغة الانجليزية كلمة Neck ..!! بينما تعابير الوجوه الأخرى تجاهد ليكون التجاهل سيدها..!! وهل المظهر الخارجى لأية فتاة دليل دامغ على براءتها أو إدانتها..؟ أستاذ الصحة النفسية منع دخولها أكثر من مرة لتأخرها عن

المحاضرات .. وهو المعروف عنه أنه سخى جدا فى تقديرات النجاح لمن تعرف أقدامها عنوان شقته الصغيرة فى ضواحى اللاشرعية.. وكان نجاحها فى العام الماضى فى هذه المادة بمقبول.. لو كانت سخية مع الرجال ..أليس من الأولي أن تجود بجسدها لهذا الرجل..؟! .. ألا يمكن أن يكون افراطها فى مظهرها نوعا من تمجيد الجسد..؟! بعض النساء مفتونات بأجسادهن.. حتى الجنون .. لكن إن عشقت المرأة جسدها.. هل يحقق لها هذا العشق الارتواء الكامل.. دون بصمة رجل..؟!

ـ لماذا لا تتكلم..؟

ـ اغتصاب يعنى..؟!

ـ كنت فى التاسعة من عمرى..

ـ ولا تعرفينه؟!

ـ كأنك لا تصدقنى..

ـ وهل يهمك أن أصدقك..؟!

ـ المرأة قد تكره من يعريها.. لكن لو تدبرت الأمر .. فهو أفضل من يسترها .. أنا فى أشد الحاجة لصداقتك..!!

وهل أنا فى حاجة إلى صداقتها .. كانت بالنسبة لى درجة أخرى فى سلم الثقة.. وقد صعدتها بنجاح.. وحتي لو كان داخلها منفصما عن خارجها .. ففى داخلى نفور من هذا النوع من البشر الذى أشعر أنه انتزعت عنه بكارته الوجدانية.. وما عاد يعنينى إن كانت قد ذهبت بكارتها الجسدية .طوعا وانتشاء أم غصبا..؟! وأفقت على صوت وجدى الحناوى فتلقفته بامتنان عظيم.. ألقى التحية وسحب مقعدا .. بدت أمارات الضيق على وجهها.. خاصة حين استدعى الجرسون وطلب كوب شاى وبعض السندويتشات ..حيث شعرت أن بقاءه سيطول ..استأذنت للانصراف .. قال وهو يتابعها: ـ يا أخى هؤلاء الدجالون حظهم من السماء.. معظم زبائنهم من النساء.. وبالصدفة يكن جميلات..

ـ لا أعتقد أنك جئت خصيصا لتحسد كبير الدجالين فى الجامعة؟!

ـ أبحث عن فـؤاد هـاشم..؟! كنت أراه فى المعـتـقل ..أكـثـر مما أراه الآن..!!

ـ يبدو أن تجربة المعتقل تركت أثرها لدى الكثيرين.. بعضهم افترش كافتيريا الجامعة وحدائقها يسوق بطولاته فى السجن.. وآخرون ..

ـ المهم الآن فؤاد هاشم.. إنه لا يأتى إلا لماما.. توجهت إلى منزله .. أنكر وجوده .. أخوه أخبرنى أنه يمضى معظم وقته معتزلا فى غرفته..

تناول قضمة من السندويتش ثم واصل فى غيظ:

ـ انسان هش ..فماذا لو تعرض للتعذيب..؟

ـ ولماذا لا تقول إن المعتقل أصلح حاله..!!

وقبل أن يعلق أردفت ضاحكا: ـ وأفسد حالى أنا ..

ذلك أننى أيضا رأيت فى تجربة المعتقل حبل نجاة ينتشل جثتى من زنزانة فراش ابن الخالة.. وينفخ فيها الحياة.. وفى البداية استجبت لعرضه فى وجل لزيارة المركز الثقافى السوفيتى.. لكننى سريعا .. ومع الزيارة الثانية نفضت عنى الوجل وتكررت الزيارات، وأدهشنى فى البدء كرمهم.. عروض سينمائية بالمجان .. مطبوعات نوفوستى.. وروايات ماكسيم جوركى وتولستوى.. وبعد أن فترت الدهشة داخلى.. اكتشفت أنه ليس من المستبعد أن يوزعوا على المشاهدين عقب عرض أفلامهم بنادق كلاشينكوف ليحصدوا سكان الحى الراقى الذى يوجد به المركز لبرجوازيتهم المفسدة.. ورغم أن طبيعتى لا تميل إلى العنف كنزعة ولو عادلة لمواجهة ظلم الآخرين.. إلا أنهم فى النهاية مناضلون .. يفتحون أذرعهم للمناضلين من أمثال وجدى الحناوى.. الذى لو كان انتهازيا لكان اختياره محسوما منذ البداية.. ملء استمارة عضوية فى الحزب الحاكم.. وسوف تؤهله قدراته إلى أن يكون وزيرا .. ربما قبل أن يتخرج..!! وقد ملأتنى تلك الزيارات بالثقة.. خاصة مع شىء من التميز فى اهتمام الرفيق سميروف رئيس المركز بى .

- هل لديك محاضرات الآن..!!

- الساعة الحادية عشرة..

قال وهو يحشر فمه ببقية سندويتش ثم اتبعه بكوب الشاى الذى دفعه فى جوفة مرة واحدة..!! - إذن هيا بنا..

لم استجب له.. وهذا ما كنت أحرص عليه منذ خروجى من المعتقل.. الحرص على أفعال تترجم ثقتى فى نفسى سألت دون أن أبرح مقعدى: - إلى أين..؟!

قال وهو يخبط على ظهرى..

- إلى المركز ..هيا

قلت محاولا اظهار مقاومتى:

- لا رغبة لى فى ذلك.. سأذهب إلى المكتبة الآن..

- لديهم معرض صور فوتوغرافية عن حرب فيتنام.. لا تدع الفرصة تفوتك.. مجموعة صور مذهلة.. أنا شاهدتها أمس فى الافتتاح..

- ولماذا تصر على مشاهدتها الآن طالما رأيتها أمس..؟!

قال فى نفاد صبر:

- يا أخى لأتأملها بهدوء .. زحام الافتتاح لم يمكننى من ذلك..

بدت مواصلتى للحوار على هذا الشكل سفسطة عقيمة .. كما أن بداخلى هوى غريبا لصور المآسى الإنسانية.. وولعا خاصا لاقتحام رأس طفل يتعذب، لا أعرف فيم يفكر في تلك اللحظة!! سادية تتناقض مع تشكيلى الرومانسى وكراهيتى للعنف .. ولا أدرى من أى بئر شيطانى تطفح، وقبل أن نغادر الطاولة أشار إلى الجرسون وهو يخاطبنى : أدفع الحساب.. لا أملك بنسا واحدا منذ أمس..

نظرت إليه ببلاهة للحظة فسرها بأننى لا أصدقه.. فجذب قيعان جيوبه إلى الخارج.. وفى الحقيقة أننى كنت أفكر فى تلك اللحظة فى معاودة الاعتذار عن عدم مصاحبته إلى المركز.. خوفا من أن يتبخر الدولار الباقى معى فى المواصلات .. والغداء وربما ، أشياء أخرى لا أتوقعها ..

وحين طال اضطرابى .. قال فى استياء:

ـ مابك.. ؟ أمازلت لا تصدقنى..

ثم أردف.. ويده تعبث فى الجيب الخلفى لبنطاله:

ـ وهاهى محفظتى..

لوح بمحفظته الفارغة إلا من الكارنيه ووريقات بيضاء أمام عينى: ـ هل تأكدت الآن أننى لا أملك نقودا ..؟!

جاء الجرسون فدفعت له الحساب وانصرفنا ، فأردف الحناوى وقد خفت حدة انفعاله:

ـ هذا التصرف لا يليق بالمناضلين..!!

فقلت فى نفاد صبر:

ـ يا أخى المسـألة أننى لا أملك سـوى دولار وباقى على أول الشـهـر أسبوع.. وأحيانا الجماعة فى البلد يتأخرون عن إرسال الحوالة

فقال ساخرا:

ـ معك دولار وتشعر بالقلق..؟! يا صديقى هناك أسر بالعشرة أفراد يمضون الشهر دون أن يروا ملك البرجوازية الراقد فى جيبك الآن..

كانت الصور تنزف بتعابير أوجاع تصرخ جميعها بذات التساؤل: لماذا؟

فلاح فيتنامى يرمق ساقه التى فصلتها القنابل عن جسده وألقت بها على بعد خطوات ، وطفل يهز فى براءة جثة أمه المتكورة بين حطام كوخ ربما لتعد له طعامه دون مجيب..

***

وصبية يطل شعاع ذهول من بين العينين المحفورتين وسط جلد الوجه المحترق..

ـ هذا هو الماكياج الذى تصدره أمريكا لصبايا العالم الثالث..!!

التفت يمنة حين لم يرد وجدى الحناوى على تعليقى.. لكننى لم أجده.. واصلت جولتى بين أرجاء المعرض .. متلقيا نزف المعاناة فى شرايينى

لتتشكل تحت الجلد ثورة هائلة ضد الهمجية الأمريكية.. وفوجئت بيد تربت على كتفى..

- هه .. هل ننصرف الآن..؟!

قلت فى دهشة:

- ولكنك لم تشاهد المعرض بعد..؟!

- سآتى غدا.. لدى الآن موعد مهم..

بدا تصرفه غير مفهوم .. لكننى استجبت له كى ألحق المحاضرة.. وعند بوابة الجامعة سألنى:

- مارأيك أن تتوجه أنت لزيارة فؤاد هاشم..؟! ربما قد لا يتهرب منك مثلما يتهرب منى..

- لكن العلاقة بيننا ليست قوية..

- مجرد محاولة.. لديك قدرة على مخاطبة مشاعر الناس لا تتوفر لدىّ.

- ولماذا لا ننتظر حتى يأتى الكلية..؟!

- حديث خاص.. تحاول فيه ترميم ما أفسده المعتقل لا ينفع إلا فى البيت.. نريد تنظيم أسبوع لمناصرة الشعب الفيتنامى، فؤاد هاشم أفضل من يفهم فى هذه الأمور..

- لكننى لا أعرف عنوانه..

قال وهو يسحب محفظته من جيبه.. وقد بدا مبتهجا لموافقتى..

- عنوانه صعب.. حارة متفرعة من حارة من ..

بغت،ورقة بعشرين دولارا مبسوطة فى أحد جيبى المحفظة .. شعرت بكيانى ينسحق بين خجلى من مواجهته ورغبتى فى أن أعرف.. كان الهمس يدور فى الجامعة.. أن بعض هؤلاء المناضلين اليساريين يحصلون على إعانات شهرية من سفارات دول حلف وارسو .. وكان الأمر كما قلت سابقا غير منطقى.. فمن يريد أن يتاجر فى سوق السياسة.. فليختر الشريك الأنسب.. والسلطة هى شريك السعد.. تعنى المال والجاه والأمان ..!!

كان شتات المشاعر يهيم على صفحة وجهه، نفضها ليصيح فى جرأة أدهشتنى:

ـ وماذا فى ذلك..؟! نائب رئيس المركز رجل لماح.. شعر بظروفى المادية فاقرضنى هذا المبلغ..؟!

وبالطبع ـ سيدتى ـ تعرفين كم كانت تعنى ورقة بعشرين دولارا فى الستينيات..!! وتعرفين أن حاجة أى شاب فى الجامعة ما كانت لتزيد عن خمسة أو ستة أو حتى عشرة دولارات بالكثير شهريا.. والأصدقاء الحميمون جدا كانوا يقرضون بعضهم بعضا نصف دولار أو دولاراً، وظنونك الآن كانت يقينى فى ذلك الوقت.. ربما لأننى الذى كنت أحيا الواقعة.. وربما لصغر السن.. فكان من السهل أن نشكل الحقائق دون أدلة دامغة..

ألهذا كان تهورا منى حين تركته... وبدلا من أن أتجه إلى المحاضرة أو منزل فؤاد هاشم.. توجهت إلى مبنى الأمن العام... ؟! مدفوعا بفطرة وطنية... مدموغة ربما باستثمار فرصة هائلة لإضافة طابق آخر إلى بنيان الثقة..؟!

ظلت الرأس تصارعها الأسئلة القاسية.. بينما القدمان تقودانى حتى المبنى القاسى فى رهبته.. تلقفنى الحراس بشكوكهم وأودعونى مكتب أحد الضباط .. ما أن رفع عينيه عن ملف أمامه... حتى ألقت الذاكرة بمخزونها عنه.. المقدم رفعت النقاش الذى استجوبنى مرة في المعتقل.. وخلاصا من نظراته النافذة التى بدت وكأنها حبل يلتف حول عنقى قدمت له نفسى سريعا.. لكنه قاطعنى وأنا أهم بذكر السبب الذى من أجله جئت.. حيث أخذ يردد الإسم فى محاولة لاستنطاق الذاكرة لتلفظ ما تكتنزه بشأنى.. ويبدو أنه نجح..

ـ كنت ضمن الطلبة المعتقلين ..أليس كذلك..؟!

ـ نعم..

ـ وأنت الذي تنبأت بموعد الإفراج..؟

رائحة غامضة تفوح من كلماته.. أهي السخرية..؟! فوران المشاعر داخلي يشل كل حواسي.. انفرجت أساريره عن ابتسامة مطلسمة..

- طيب يا شيخ منذر.. فرصة جيدة لأن تقرأ لى الكف.. أم الفنجان أفضل..؟!

أشعر بخلاياى تتداخل.. تنضغط.. لكنها تأبى أن تحقق حلمي فى أن تتلاشى وأصبح عدما، لم أكن بهذا الوهن المسكون بالخوف فى المعتقل، ألأننى كنت أستمد من زفير المعتقلين ونسى..؟! لكننى هنا، فى مكتب هذا الضابط الغبى لست معتقلا، جئت فى مهمة وطنية مقدسة... فلم لا ينتشلنى من قلقى بدلا من أن يزرع نظراته ألسنة لهب في لحمى..؟!

وتمكنت من أن أنطق: - يا أفندم أنا تحت أمرك.. لكننى الآن جئت لأبلغكم عن أمر خطير يحدث فى الجامعة..

بدا الاهتمام يغلب على تقاسيم وجهه... فقال فى مودة:

- جيد ..لكن أظن يا أستاذ منذر لا يصح أن تقال الأمور الخطيرة... وأنت واقف هكذا..

جلست .. لا لشيء إلا لأن قدمى لم تعدا قادرتين على حمل جسدى.. حتى لو كان انضغاط الخلايا قزمه فأصبح فى حجم صرصور.. وبدا متعجلا:

- هه... ماذا لديك من أمور خطيرة يا أستاذ منذر..؟!

- لا أدرى يا أفندم كيف أبدأ.. كان لدى شعور بأن هؤلاء الناس ممسوسون بنقاء الانبياء.. حتى اكتشفت حقيقتهم اليوم..

- فى المركز الثقافى السوفيتى.. مع وجدى الحناوى..؟!

أفرغ ذاكرتي من محتوياتها، ماذا أقول، لابد وأنه يعرف لماذا أنا هنا.؟!

- اكتشفت أنه يحصل على نقود من المركز..

- عشرون دولارا شهريا.. أهذا ما اكتشفته..؟!

نطق الكلمة الأخيرة بسخرية، أوجعتنى، لكنه استدرك قائلا:

ـ لكن أنا سعيد بزيارتك هذه.. هل تعرف لماذا..؟! لأننى حين كنت أفحص ملفك.. وجدت أنك لست مع أحد.. ولن تكون مع أحد سوى بلدك.. قراءاتك عميقة.. هذا يمنحك القدرة لأن تكشف بسهولة عورات هؤلاء الذين يتاجرون بالشعارات فى الجامعة.. هه... وماذا لديك أيضا..؟

رويت له كل شيء.. تفاصيل زياراتى للمركز.. وما كان يدور في المعتقل.. ومجلات الحائط التى بدأت تعاود الظهور على جدران الجامعة.. وبدا فى إنصاته الصامت وكأنه يقارن بين ما أقول وأرشيف معلوماته للتأكد من مدى صدقى.. لهذا حرصت على أن أفرغ كل ما لدى دون تحريف كى أعجل بخروجى أمنا!!!

لكن حين أشرت إلى أسبوع التضامن مع الشعب الفيتنامى .. أمطرنى بسيل من الأسئلة حول تفاصيل كنت أملكها . ثم ألقى بورقة أمامى وطلب أن أسجل فيها عنوانى.. حمدت الله أنه انشغل فى مكالمة هاتفية.. حتى لا يلحظ رعشة القلم بين أناملى.وأنا أهم بمغادرة المكتب.. ألقى إلى بما أثار قلقى:

ـ من الأفضل ألا يعرف أحد بزيارتك هذه.. ومن الأفضل أيضا أن تبقى علاقتك بوجدى الحناوى كما هى..

فكيف لى أن أبقى على علاقتى بوجدى الحناوى.. وقد عرفت عنه.. ما عرفت..؟ حتى لو كنت عبقريا فى التمثيل فليست لدى القدرة أن ابتسم أو حتى أرد على تحية عادية يلقيها مثله.. ثم .. ماذا يريد منى رفعت النقاش وقد أفرغت فى مكتبه كل ما لدى..؟!

كنت مثقلا بما حدث..لا أدرى إن كنت قد سلكت الطريق الصحيح.. أم لا ..؟! لاشك لدىّ أن وجدى الحناوي خائن ..لكنه زميل.. كيف أبلغ عن زميل لى فى الجامعة..؟!

إلا أن المقدم رفعت النقاش كان يرى أن ما ينبغى أن أفعله لم أفعله بعد.. حيث لم يمر يومان إلا وفوجئت بشاب توحى ملابسه وتقاسيم وجهه المشربة بلون الطمى أنه مثلى من مجاهل الريف.. يطرق بابى:

- سيادة المقدم رفعت النقاش يرغب فى رؤيتك

البداية كانت غامضة..استقبلنى عند الباب وقادنى إلى مقعدى في مواجهته وهو يحفنى بكلمات الترحيب.. وتذكرت ما قاله أبى لعمى مرة: إذا استقبلك مأمور المركز بترحاب .. فلا تستبشر خيرا ..!!

- ما رأيك فى فنجان قهوة..؟

لم يتح لى فرصة الرد.. ضغط على زر جرس بجواره.. فأطل شرطى عبر الباب: - اثنان قهوة مضبوطة

انصرف الشرطى ..فقال: - أحبها مضبوطة.. الاعتدال فى كل شىء أمر مطلوب لصحة الانسان

تمتمت فى ارتباك: نعم.. نعم.. هذا صحيح..!!

وقال وهو يسحب جريدة من على طاولة صغيرة مجاورة:

- هه.. ما الأخبار في الجامعة..؟!

- لا جديد ..

- ألم تذهب لفؤاد هاشم..؟!

- ليس بعد..

- وأسبوع التضامن مع الشعب الفيتنامى..؟!

- لا أعرف ماذا تم بشأنه..؟! لم أذهب إلى المركز ولم ألتق بوجدى الحناوى منذ يومين

شعرت بالقلق.. فليس لدى ما أشبع به نهمه لمعرفة الأحوال فى الجامعة ..

- لم تلتق به أم تتهرب منه..؟!

أظهر لا مبالاة تجاه ترددى فى الرد.. وبدا منشغلا فى قراءة الصحيفة..

- هل رأيت ما يفعله الأشقاء بنا..!! يحرضون أصدقاءهم الصحفيين فى جرائدنا... كى ينشروا أخبارا عن معونات غذائية سوف يرسلونها هدايا لشعبنا المسكين.. وبعد ذلك يصدرون بياناً لتكذيب هذه الأخبار..

قلت فى عفوية: ـ شىء مقرف.. ولا أدرى لماذا لا تحاسب الحكومة هؤلاء الصحفيين..أعنى..

ـ أهذا رأيك أنت .. أم رأى زملائك فى الجامعة..

قلت في محاولة للتهويم: الكثير فى الجامعة وخارج الجامعة يتحدثون عن هذا الأمر..

لكننى أردفت ما هو ملاحظتى الخاصة..

ـ خاصة أن أحد هؤلاء الصحفيين عين منذ فترة رئيسا للتحرير!!

ـ والشيوعيون ماذا يقولون..؟!

يدلف الشرطى حاملا فنجانى القهوة.. وكنت في حاجة إلي مثل هذه اللحظات لأتخذ قرارى ، هل ينبغى أن أمنحه كل ما أعرف..؟! لا أخفى أننى أشعر بالإحباط حين يسألنى ولا يكون لدى إجابة.. شىء ما داخلى لا يتقبل أن أبدو فى عيون الآخرين جاهلا.. !! لكن إلى أين يقودنى هذا الضابط إن تجاوبت معه..؟! وخرج الشرطى دون أن أتخذ قرارى.. ويبدو أنه قرأ ما بداخلى حيث قال:

ـ اسمع يا منذر.. الكلام الذى سأقوله لك الآن ليس خطبة من الخطب التى تسمعها في الجامعة عن الوطن والوطنية والمطحونين والمقموعين.. ومثلما كنت مخدوعا فى طالب مثل وجدى الحناوى .. فهناك الكثير من طلاب الجامعة مخدوعون به وبشعاراته، لكنهم لم يكتشفوه بعد.. الحكومة ليس لديها مانع من الحوار ومن الديمقراطية ومن وجود معارضة.. لكن معارضة بين وطنين حقيقيين وليس عملاء لهذه الدولة أو تلك.. الشيوعيون يقولون إن الاتحاد السوفيتى قلعة النضال فى مواجهة الامبريالية العالمية... كلام جيد.. وحكومتنا لديها علاقة ممتازة بالاتحاد السوفيتى، لكن العلاقات بين الدول علاقات مصالح .. فماذا لو تعارضت مصالحنا مع مصالحهم .. مع من سيقف وجدى الحناوى..؟ بالتأكيد مع الذى يصرف له عشرين دولارا شهريا.. بالطبع قرأت عن اتفاقية ستالين/ هتلر .. ستالين وجد أن مصلحة بلده تتطلب مهادنة هتلر، وعدم الدخول فى

حرب مع ألمانيا النازية.. ولم يدخل الحرب إلا بعد هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفيتي..

تناول رشفة من فنجان القهوة.. وعيناه تنفذان داخلى ربما ليقرأ تأثير كلامه.. ثم واصل:

- وأود أن أنبهك لشيء.. أننى لا أمارس عملى هذا من منطلق أننى فقط موظف.. بل لأننى أحب هذا البلد.. وأى انسان وطنى لا يمكن أن يرى ما يفعله وجدى الحناوى ويتخندق فى عبارة «وأنا مالى».. مثل وجدي الحناوى كثيرون في الجامعات.وهؤلاء يمثلون خطرا حقيقيا .. كل منهم لديه استعداد لأن يبيع أمه وزوجته بدولار.. والتاريخ علمنا أن الصغير اليوم يصبح كبيراً غدا.. ومن الممكن جدا أن يكون رجل أعمال أو فنان.. أو وزير..

قاطعته فى تهور: - أو رئيس تحرير مثل هذا الصحفى الذى كتب عن مجاعتنا..!!

تطلع إلى الجريدة.. وقال فى أسى حقيقي: - نعم.. للأسف

وشجعنى هذا أن أسأل فى لوم.. وكأنه صاحب السلطة العليا فى هذا البلد.. - لماذا ..؟

- لعبة السياسة تجبر أحيانا صاحب القرار أن يتخذ من القرارات ما لايبدو مفهوما.. وهذا يحدث فى كل الدنيا..

لم يكن المقدم رفعت النقاش الجاف والساخر حتي الاذلال.. كما عرفته فى استجواب المعتقل، وكما بدا فى لحظات الاستقبال الأولى فى المرة السابقة.. بدا صديقا ودودا يتيح لى فرصة أن أكون ندا له.. ورغم موار قلقي.. فلقد أراحنى بل ودفعنى أن أسأل: - وأليس من حق الشعب أن يفهم..؟!

بدوت وكأننى أوجه اتهاما له باعتباره ممثلا للسلطة فانتابنى شيء من الندم علي تهورى.. لكنه استقبل سؤالى بابتسامة ساخرة.. لكنها من السخرية التى تطاق..

ـ وهل تريد الحكومة أن تعلن للشعب أنها عينت هذا الصحفى رئيسا لتحرير إحدى أكبر جرائدنا. لأنه رجل «مملكة جازيا».. وأن الظروف السياسية الإقليمية والدولية تستدعى أن نحسن علاقتنا بجازيا الآن..

نفذت نظراته الحادة فى داخلى وهو يرتشف القهوة.. ثم قال:

ـ رئيس التحرير هذا وغيره مرصودون.. هم يدركون أصول اللعبة، ويعرفون أن هناك خطا أحمر لا ينبغى أن يتجاوزوه.. المشكلة فيكم أنتم.. فى الجامعة..إذا لم توافق السلطات على إقامة أسبوع التضامن مع شعب فيتنام سيستغل الطلبة الشيوعيون الأمر وينظمون المظاهرات منددين بالحكومة.. وإذا وافقنا أيضا سينظمون المظاهرات ويخرجون بها إلى الشوارع... وأنت تعرف شعاراتهم التى يرددونها فى المظاهرات.. كلمات جميلة ومؤثرة ضد القمع والاستبداد والديكتاتورية.. وليتك تسأل صديقك وجدى الحناوى.. هل توجد دولة شيوعية فى العالم يتمتع شعبها بالحرية؟!

وأراحنى هذا.. أن تكون دفة الحديث معه طوال الوقت.. فمازلت أتخبط في عجز حيرتى..

ـ هم والجماعات الدينية الآخذة فى الانتشار الآن لديهم قدرة عجيبة على شحن آلاف الطلبة وتأليب الناس فى الشوارع ضد الحكومة.. فيدمرون ويحرقون كل ما هو حكومي.. الاتوبيسات والمدارس والمصانع ..

هل تعرف كم خسرت البلد بسبب المظاهرات الماضية.. ثلاثة مليارات دولار.. وهذا ما يريدونه.. إضعاف الدولة.. ثم الانقضاض على السلطة..!!

كأنه يفككنى خلية خلية ليعيد برمجتي .. وهذا هو برنامجه الجديد..

ـ موضوع أسبوع التضامن مع فيتنام ليس موضوعا هينا يجب أن نكون متيقظين لنواياهم.. لهذا ينبغى أن تظل علاقتك بوجدى الحناوى جيدة..!!

أهذا ما آل إليه حالى بعد خروجى من الشرنقة.. أن أكون مرشدا للحكومة..؟!

ـ نريد أيضـا أن تنظم حملة توعية فى الجامعة لمواجهة أفكارهم الهدامة..

ورغم اختلالى الذهنى إلا أنى تمتمت بما يوحى أنه موافقه

ـ كيف..؟

وكأن هذا ما كان يود سماعه..

ـ تشكيل أسر فى الكليات.. سيكون خطابها الموجه للطلبة موضوعيا، وغير مباشر.. نريد أن نستفيد من تجاربنا الفاشلة الماضية.. الشعارات والخطب الرنانة لن تأتى بنتيجة.. أنت مثلا فى أسرتك التى ستشكلها في الكلية لن تتصنع شيئا ليس موجودا فيك.. انسان وطنى غيور على بلده.. وبالمنطق والحجج القوية يمكن دحض أفكار هؤلاء.. نحن بالطبع سندعم هذه الأسر .. هم يتلقون دعما قويا كما ترى لتخريب البلد.. فالأولى أن ندعم أبناءنا الشرفاء مثلك للحفاظ على البلد .. والمسألة ليست الآن.. بل الأمر يتعلق بالمستقبل.. من ينبغى أن يكون صاحب السلطة.. منذر عبد المهيمن أم وجدى الحناوى..؟!

لم أعد أعي ما أسمع.. ماذا يخطط بشأني هذا الرجل..؟ ولم أنا ..!!
ما أشد حاجتي لمن أفرغ في صدره هذا الصخب الهائل الذي يحطم رأسي..؟ هل أفرح لأنني مثار اهتمامه.. اهتمام المقدم رفعت النقاش..؟!
هل أفرح لأن بعبع وجدي الحناوي والتميمي وكل الذين يغردون خارج السرب يفضي إليّ أنا منذر عبد المهيمن بخططه ونواياه..؟ وما أظن مثله يفعل ذلك إلا لأنه يعرفني.. يراني جيدا.. منذر عبد المهيمن المختزل بعد وفاة والديه وانتزاع سراويله في ليالي الشتاء البعيدة إلى مجرد دمعة قهر.. لابد أنه درسني جيدا.. وعرف أن مواجهتي لطالب عضو في اتحاد الطلاب كانت تكلفني شجاعة تتجاوز طاقتي الواهنة.. مواجهة ضابط نقطة القرية كانت تستلزم مني أن أسند ساقي بدعامتين خشبيتين.. وربما عرف عني أيضا أنني أبحث عن دور.. فأتاحه لي.. مرشدا للبوليس ، وعلى من .. زملائي في الجامعة.. ؟! لكنهم خونة.. طالما يمدون ايديهم إلى ما وراء حدود الوطن..

تنهدت في ارتياح حين انزلقت من مكتبه إلى أروقة المبنى.. إلى الشارع .. إلى الهواء الطلق.. لكن صدري لا يطيق ما بداخله. من يشاركني همومي..؟ فجأة اكتشفت أنني بلا امتداد.. مبتور عن الحضور الانساني في هذا العالم.. ونسرين زهدي.. أليست امتدادا لي..؟! فإن لم تكن بعد.. فلم لا تكون..؟! لكن علاقتنا مازالت في طور التخصيب.. هذا الأمر الجلل هل ألقي به إليها..؟!

جلست أمامها .. وأنا أشخص بعينين متسائلتين في الوجه الهاجع في رحم السلام الذي تأبى أن تغادره حتى لا تلفحه أعاصير التآمر التي تهب من زوايا الكون الأربع..!!

ماذا لدى هذا المخلوق الأثيري من وعي بمؤامرات البشر ليعظني

ـ هل ستغيب أيضا عن المحاضرة المقبلة..؟

ـ متى ستبدأ..؟!

ـ حتى مواعيد المحاضرات غابت عن ذهنك..؟ بعد نصف ساعة.. ماذا بك يا منذر ..؟!

كأنها تمد لي نهرا من التعاطف أذرف فيه دموعي.. هل كانت تحجز لي مساحة داخلها أمرح فيها دون أن تشي بذلك في لقاءاتنا التي بدأت عادية منذ تعارفنا في السنة الأولى.. إلى أن فاحت بشيء من أزاهير الداخل.. في لقاء قراءة الكف..؟! أم هو لقاء قراءة الكف وحده الذي هيأ لها أن تراني ولو بغموض رجل الأنثى داخلها..؟! ودون أن انتهي إلى قرار فوجئت بي ألقي في صدرها ما لدي.. احتوتني بنظرات امتزجت فيها الشفقة بالحيرة.. ثم قالت : ـ موقف صعب..؟!

ـ ماذا أفعل يا نسرين..؟!

تمتمت في لوعة.. ثم أردفت مفسرا: ـ لم يكن أمامي سواك.. قد أكون مخطئا .. لكن ..

قاطعتني في تأثر: ـ لم تخطيء يا منذر .. بل على العكس.. أشعر الآن بارتياح.. لأنني أيضا لدي همومي الخاصة.. وأنت بذلك تشجعني أن أبوح لك..

ـ هموم خاصة..؟!

ـ أسرية .. وبعد لقائنا الماضي شعرت بأن المسافات بيننا تختزل سريعا.. وها أنت اليوم تلغيها تماما.. هذا ما كنت أوده..

ـ ياه .. كنت أخشى رد فعل باردا يلقي بي في بئر الندم لأنني بحت لك بأوجاعي..

ـ ليست أوجاعا.. أنت تعلم أنني أهوى الرسم.. وأحرص على حضور المعارض والندوات التي تتعلق بالفن التشكيلي.. هذا يقربني كثيرا من وسطهم .. وسوف ألقي لك الآن بما يدهشك .. الرسام الكبير بل التشكيلي الأول في بلدنا عصمت الساهي..؟

ـ ماذا به..؟

ـ منذ أن كان طالبا في الجامعة وهو يتعاون مع أجهزة الأمن .. هذا ما يرددونه همسا فى وسط التشكيليين..

ـ ربما شائعة.. نوع من الحقد والحسد..

ـ هذا ما ظننته أيضا.. إلى أن سألت زوج عمتى، وهو لواء شرطة على المعاش ، وأمضى سنوات عديدة فى الأمن الخاص.. فأكد لى ذلك.. بل قال ضاحكا: إياك أن تظنى أن موهبتك أو تفوقك العلمى يكفيان لأن تكونى شيئا فى هذا البلد..؟! لابد من واسطة..أب .. عم .. خال .ومن ليس له واسطة.. فليبحث عنها لدى ٩ ش الزهاوى.. كان يعنى مبنى الأمن الخاص..

شهقت في فزع: ـ هذه الأسماء الرنانة عملاء للبوليس..؟!

ـ ليسوا هكذا.. على الأقل ليسوا جميعا هكذا.. كثيرون منهم وطنيون .. بعضهم تصرف بعفوية مثلما فعلت أنت .. غيرته الوطنية دفعته إلى أن يخطر جهات الأمن عن خطأ ما ..

ـ هل معنى هذا أنك تنصحينى بأن أستجيب لهم..؟!

ـ أول تعليق كان «موقف صعب» والذى أعنيه.. أن الأمر يتعلق باستعدادك أنت.. أن استجبت فليست خيانة لزملائك إلا إذا دفعك الحسد مثلا أو أمور شخصية لأن تدعى على أحد ماليس به.. بل حتى الذين يستجيبون للمظاهرات بشكل عفوى مدفوعين بعوامل وطنية.. هؤلاء ينبغى أن يكونوا خارج اهتمامك .. فقط الذين يتعاملون مع جهات أجنبية..

عانقتها عيناى بإحساس هائل بالامتنان.. ثم قلت فيما يشبه الاعتراف

ـ كنت أظن أن ثراءك الداخلى ثراء فطرى.. أحادى .. يقتصر فقط على المشاعر النبيلة.. على حدس الفنان الصادق.. الآن اكتشفت محيطا آخر ثريا بأمور الحياة..

قالت ضاحكة:

ـ فتاة مثلى أمها مديرة ملجأ للأطفال اللقطاء وأبوها مقاول وزوج عمتها لواء شرطة.. لا يمكن أن تكون هرة ساذجة يا منذر ..

استلهمت من كلماتها فلسفتى الوطنية الخاصة.. لكننى لم أهرع إلى المقدم رفعت النقاش لأنبئه بفلسفتى تلك.. ربما لافتقادى للقدرة على أن أبادر ..فأطرق بابه وأجلس قبالته وأقول له: اسمع.. هذا ما لدى.. ولا شيء غيره.. إن راقكم .. عنوانى تعرفونه..!! وربما أيضا أن الداخل لا يزغرد فرحا لدور مثل هذا.. صحيح أنه يملأ خانة أخرى فى بطاقة هويتى ببيانات مهمة.. لكن أنا فى النهاية منذر عبد المهيمن الذي تمتد جذور بنيانه الإنسانى فى فراغات العزلة الموحشة.«وعذرا سيدتي لحشدى كلمات مثل ربما وأظن فى رسالتي هذه.. وهذا ما لفت انتباهى عند مراجعة الجزء الذى انتهيت من كتابته فربما يرجع الأمر إلى أنه لا يوجد في عالمنا هذا يقينا.. وربما يتعلق الأمر بنشأتى المهتزة.. التى تصبغ كل ما أراه بالضبابية..!!»

وغابت رسله عنى أسبوعا .. شيء من الارتياح يساورنى.. سرعان ما تلاشى أمام هبات من القلق الممزوج بالإحباط :هل الرجل لفظنى من ذاكرته حين رأى بعينيه النافذتين أن تحت ملابس منذر عبد المهيمن جرذا مذعورا تتلبسه دوما فكرة القط المتحفز وراء كل باب لالتهامه.. بينما تلك المهام الصعبة في حاجة إلى عناتيل تخشاهم شياطين الكوابيس فلا تقترب من أسرتهم ليلا..؟ ألهذا تنهدت في ارتياح حين طرق بابى رسوله..؟ لكن القلق لم يبرحنى.. إلا أننى بمجرد أن جلست قبالته ألقيت إليه بما لدى

ـ مستعد للتعاون معكم .. لكن بلا مقابل وبلا توجيهات.. أعنى مثلما فعلت سابقا.. إن لمست خطأ ما سوف أبلغ عنه..

عض على باطن شفته السفلى مومئا بعدم الترحيب .. ثم قال:

ـ اسمع يا منذر .. فى أمور الوطنية لا تصلح سياسة الباب الموارب .. ثم لماذا هذه الحساسية تجاه مسألة النقود..؟! مجرد مكافأة شهرية تعينك علي القيام بمهمتك .. ستحتاج إلى مواصلات .. ودفع حساب المشروبات على الكافتيريا مثلا، ثم لكى تؤدى عملك بشكل جيد.. يجب أن

تكون مستريحا من الناحية المادية.. ظروفك الأسرية لدي فكرة عنها، وأيضا أسعار الكتب، والايجار الذى تدفعه في الشقة.. بل أرى من الأفضل أن تنتقل للمدينة الجامعية من العام القادم.. والأسرة التى ستكونها أليست في حاجة إلى نفقات..؟!

كان قرارا قد اتخذه .. وقد استدعاني لإبلاغى وليس للتحاور .. ورجوته أخيرا أن يعفينى من مهمة تشكيل الأسرة..

نفذت عيناه في خلاياى.. وهو يسألنى: لماذا..؟

وقلت فى ارتباك: ـ سوف تشغلنى عن الدراسة..

لم أكن أنأى عن الحقيقة كثيرا.. كان هذا بالفعل هدفى.. ليس فقط كمسار لتحقيق طموح اجتماعى أو مهنى .. بل للتعمق فى العلم.. في محاولة للوصول إلى هذا السيد الكامن في قرار كل منا والذى يملك من الطاقات ما لم يبح به بعد..

ـ وماذا تريد من الدراسة..؟!

بدا السوال غريبا، ولم أجد ما أجيب به عليه.. فأردف: أن تكون معيدا.. دكتورا..بعثة دراسية في الخارج..؟! إن لم يتح هذا للوطنيين ..فلمن يتح..؟!

قلت وقد فاجأتنى كلماته: ـ يسعدنى أن أسمع ذلك.. لكن أريد الدراسة من أجل الدراسة.. لديّ طموح علمي أخشى أن انشغل عنه بـ..

قال مقاطعا في حزم: ـ لا تخشى شيئا.. ما تريده سوف يتحقق..

ـ وشيء آخر.. وجدى الحناوى..

ـ ماذا به..؟!

ـ لا أريد أن أواصل علاقتى به

ـ لماذا..؟!

ـ لا أدرى .. ربما لأنه مات بداخلى.. حتى إذا حاولت أن استمر فى دور الصديق.. سأفشل.. سيكتشف هو ذلك..؟!

ومازلت أتذكر نظرة عينيه الحادة وهى تتغلغل داخلى لتكتظ باقى

جيوب المقاومة بالتردد ..قبل أن يردف..

ـ الدكتور عارف الخالدى.. أستاذ مناهج البحث.. هل تعرفه..؟!

ـ نعم ..ماذا به..؟!

ـ أريد بعض المعلومات عنه..!!

كيف.. هل أقرأ للرجل كفه..؟ شعرت بأن المقدم رفعت النقاش كبل عنقى بطوق غليظ، وحده الذي يملك مفتاحه؟ فكرت أن أتعمد الفشل.. فيطلق سراحى.. لكن قوة داخلى دفعتنى إلى أن أنفذ المهمة.. ولم أخف سعادتى حين استقبل معلوماتى باهتمام. ـ إذن هو يساعد الطلاب على السفر إلى ايطاليا للعمل هناك صيفا..؟!

ـ تحت إشراف منظمات شبابية عالمية تتولى توفير تذاكر السفر والإقامة فى بيوت الشباب..

ـ ما رأيك أن تسافر معهم..؟!

ـ أنا ..؟!

هالتنى الفكرة.. أنا الذى أحاول بصعوبة أن أغادر تلك الغرفة المظلمة في بيت الخالة.. حتى أنجو من أصابع ابنها الغليظة ..أجد نفسي مطالبا بالسفر إلى ما وراء البحار...

ـ كيف..؟

ـ هذه مهمتك.. حاول التقرب منه..

واكتشفت أن لدىّ تأشيرة دخول إلى العالم السرى للدكتور عارف.. اهتماماتى العلمية..

ومنذ خروجى من المعتقل، كنت قد بدأت بالفعل استرعى انتباهه بأسئلتى غير المألوفة.. زدت من حواراتى معه.. وكأن وقت المدرج لم يعد يكفى.. فطرقت باب مكتبه محملا بأسئلة وأفكار علمية.. تفوح برائحة السياسة من النوع الذي تجعل لعابه يسيل .. مثل فكرة أن دراسة المجتمعات القبلية التى لم تختلط على الإطلاق بالحياة العصرية.. أو حتى دراسة مجتمعات النمل ستمدنا بأدلة دامغة على أن النظام الرأسمالى لا

ينسجم مع الفطرة..

اختارنى الرجل ضمن من سيسافرون ، ولم يخف المقدم رفعت النقاش سعادته بذلك.. ورجوته أن يمنحنى الفرصة لأن استعد للامتحانات ..فقال ضاحكا:

ـ اجازة ..لكن بعد الامتحانات مباشرة أراك هنا..

نجحت بتقدير جيد .. بينما كان تقدير نسرين زهدى جيد جدا.. وعلقت ضاحكة..

ـ ليس لأننى أكثر ذكاء أو علما.. لكنها مشاغلك الوطنية..!!

وكنت قد أخبرتها برحلة ايطاليا.. ولا أنسى سطوة القلق فى عينيها فى لقائنا الأخير..

ـ انتبه لنفسك يا منذر..

وتوسل امتزج مع عنفوان القلق ليشكلا لوعة الأنثى حين تكون مهددة بفراق إلفها..

ـ سأنتظر خطاباتك..

كأنه كان زواجا سريا ربط كلانا منذ أن حفرت أسماؤنا فى اللوح المحفوظ.. ولم تجهر به القلوب إلا فى جلسة قراءة الكف..

سافرت إلى ايطاليا .. مكثت هناك أكثر من شهرين.. اختزنت خلالها الذاكرة من الرؤى والمعارف والخبرات ما فشلت فيه الكتب عبر سنوات عمرى.. واكتشفت أن العالم أكثر اتساعا من غرفة الخالة وفراش ابن الخالة.. وأنه ثرى بالتجارب القادرة على محو آثار عبث ابن الخالة.. لكن نسرين زهدي مريضة.. أرسلت إليها خطابين أحدثها عن عالم آخر مثير خلف البحر.. رغم ثراء قراءاتى حوله.. إلا أن كل هذه القراءات بدت ضحلة.. فقيرة وعيناى تصرخان بدهشة الجنون لما أرى.. بدوت وأنا أحكى لها كأننى المكتشف الأول لهذا العالم..

حكيت لها عن زياراتنا لفرنسا اللوفر .. المخزن الأمين للتاريخ.. وأسبانيا الهجين الرائع ما بين جنيات الشرق الحارة الغامضة.. وألق الغرب الوحشى.. وفى نهاية خطابى الأول قلت لها.. ـ لكننى أشعر بأن أوكسجين هذه البلاد غير نقى.. لأنه لم يعقم بزفيرك..؟

وكان ردها الذى أسكرنى بنشوة الشوق إليها

ـ أمل ألا تكون جزءا من مبهرات أوروبا النساء..!!

وفى خطابى الثانى قلت لها إننى بالفعل محاصر بالجميلات .. لكن تأملى المستمر لأجسادهن .. أرواحهن، إنتهى بى إلى يقين.. ربما هو اليقين الأول فى حياتى..إن الله بعد أن خلق النساء تفرغ لتشكيل نسرين زهدى فخصها بشيء من قدرته جل شأنه على الإبداع، ليؤكد لنا سبحانه عبقريته على الخلق... ليقدم لنا سبحانه إجابة على سؤال قد يراود النفس الوسواسة لماذا هو تبارك وتعالى وحده الجدير بأن نعبده..

وكان ردها مقلقا.. قالت إنها تخشى أن أكون مثل فنان تشكيلى.. يرسم الأشياء أحيانا ليست كما هى.. وليس كما يراها هو.. بل ما يحلم أن تكون عليه.. ولم يكن هذا مثار القلق.. بل ما قالته عن ساقها:

ـ منذ عام وأنا أشعر بألم فيها.. لكن الآلام فى الفترة الأخيرة

تزايدت.. توجهت إلى أكثر من مستشفى وأكثر من طبيب معروف.. دون جدوى..!!

جزعت .. حاولت الاتصال بها هاتفيا من إيطاليا.. وما كان أحد يجيب... وحين عدت عاودت المحاولة إلى أن ردت عليّ أمها وأخبرتني في لوعة أنها تلازم المستشفى منذ أسبوعين .. هرعت إليها .. لم أتمكن من رؤيتها .. كانت في العناية المركزة.. قال الأطباء إنها تعاني من فشل كلوي خبيث .. وأخيرا رأيتها .. وما كانت نسرين زهدي التي أعرفها.. شهقة الجمال الأولى في الكون.. امتص المرض نضارتها.. وشعرت بحاجتي الملحة إلى أن أضمها.. بل أخفيها في صدري.. أحميها بدرع ضلوعي فلا يصل إليها ملك الموت أبدا - استغفر الله العظيم.. سالت دمعة من عيني.. حشدت كل قواها في أناملها لتتمكن من أن تحركها لتمسح دمعة عجزي ابتسمت وقالت:

- تنبؤاتك يا بروفيسور لن تتحقق ..لن أفشل في الزواج.. ولن أحقق تميزا في عملي.. كما ترى.. الموت لن يتيح لي حتى أن أفشل..!!

وكانت أول من ناداني ببروفيسور.. وكانت أول أنثى تدغدغ جينات رجولتي.. بل تستدعيها من مكامن رعبها.. ماتت نسرين زهدي .. وتصحرت جينات الانسان والرجل تحت الجلد..!!

لم يتركني المقدم رفعت النقاش.. هزني بعنف لأفيق من متاهة حزني.. لكنني كنت أشعر في كلماته الحادة بحنو أبوي.. ملأ وحشتي ونسا..

- لن أقول لك ما يقوله الآخرون.. النساء كثيرات.. كل خطوة نتعثر في مائة منهن.. هذا كلام غير منطقي ولا يتفق مع انسانيتنا .. الرجل والمرأة ليسا ترسين في ماكينة.. إن تعطل ترس يستبدل به آخر.. لكن هذا لا يعني يا منذر أن نستسلم لأحزاننا في عجز.. أمامك الحل.. اهتماماتك التي تحبها.. الدراسة .. القراءة.. القوى الخفية التي تبحث عنها.. عملك معنا ..أم أن هذا لا تحبه؟!

بل أحبه.. ويعزى حماسي للعمل معه إلى نجاح رحلة ايطاليا .. ولم يخف سعادته بالتقرير الذى كتبته .. كان التقرير متخما بالأدلة التي نفخت فى شكوكهم روح الحقيقة .. كان وراء تنظيم المعسكر منظمة الشبيبة الدولية من أجل السلام!!

لم يكن بيننا وفود من شباب الدول الشيوعية.. كان المعسكر قاصرا علي شباب دول العالم الثالث والدول الصناعية الكبرى.. محاضرات تلقي عن التلوث البيئى وتأثيره الخطير على حياة الانسان.. ويترك للشباب استنتاج أسباب هذا التلوث.. قسوة الآلة الصناعية الغربية الضخمة والتى لاتهتم إلا بجنى الأرباح ولا تبالى بالسموم التى تنفثها .

كان الهدف كما يبدو شحن الشباب بفكر معاد للآلة العسكرية والصناعية الغربية.. وفى أكثر من محاضرة .. أشار المحاضرون إلى اتفاقات سرية يتم بمقتضاها دفن نفايات نووية لدول صناعية فى أراضى دول نامية.. والمحاضرات كانت دوما مدعمة بأفلام سينمائية، والسينما .. هوليوود تحديدا حظيت بمحاضرتين ، إحداهما كانت بعنوان «أمريكا من خلال هوليوود.. الحقيقة والخداع..» والثانية كانت بعنوان «هوليود وثقافة الفشار

خلال السنوات التالية مع استفحال ثورة الشباب في العواصم الأوروبية وظهور منظمات حماية البيئة.. والتظاهر ضد القواعد النووية.. شعرت بقوة الرباط السرى بين معسكرات منظمة الشبيبة الصيفية. وحالة الغضب التي تعترى شباب الدول المتقدمة..!!

وانتزعت أقدامى بقسوة من جوار قبر نسرين زهدى .. واحتوانى المقدم رفعت النقاش بوجهه الآخر الرقراق بالمشاعر .. لم يكن هدفه أن أظل متماسكا فلا يتأثر عملى معه.. بل تشجيعه كان يفوح بجزع أبوى حقيقى كنت ألمسه فى حواراته معى، وما عادت لقاءاتى به فقط للعمل.. بل كثيرا بدت مشحونة بعاطفة انسانية بين صديقين.. رغم فارق السن بيننا.. فكان سكنا لى أبثه طموحاتى فلا يستنكرها رغم غرابتها.. وأقول

غرابتها لأنها لم تكن تفوقا فى الدراسة وشغل منصب فى الجامعة أو خارجها فقط.. بل منحة دراسية فى أوروبا أو أمريكا.. أحاول فيها أن أميط اللثام عن تلك القوى الخفية التى بدأت تسيطر على جزء كبير من اهتماماتى الفكرية منذ نبوءة المعتقل.. ذلك أنه من خلال قراءاتى حول هذا الأمر لم أعد أشك فى وجودها ، ولن أصل إلى حقيقتها عبر الكتب فقط.. لابد من السفر إلى أمريكا.. أوربا ..الهند .. التبت .. لابد من اكتشاف ذلك النفق المظلم ما بين العلم الحديث وقوانا الخفية.. فإن نجحت لن أكون عرافا فاشلا كما قالت لى نسرين فى أيام احتضارها الأخيرة.. ولم أستغل أبدا دفء التواصل الانسانى بيني وبين المقدم رفعت النقاش فى أن أهجع فى فراش الإبن المدلل الذى يريد فيعطى ولا يعطى .. لقد اتحفته بهدايا قيمة لم يخف انتشاؤه بها ، استعداد بعض الطلبة الوافدين الذين ينتمون إلى إحدى دول الجوار لتوزيع منشورات تهاجم النظام.. صدقت معلوماتي حين هاجمت قوات الأمن شقة أحدهم، وعثرت ليس فقط على المنشورات ، بل أيضا علي تعليمات من ضابط مخابرات فى هذه الدولة بتوزيع المنشورات ، وإثارة قلاقل فى الجامعة.. إلا أن هديتى الكبرى له كانت اكتشاف شبكة غريبة تضم طالبات من كافة جامعاتنا .. والحقيقة أن وجدى الحناوى والذي أبقيت على شىءمن علاقتى به إرضاء للمقدم النقاش هو الذي دس في يدى الخيط الأول لهذه الشبكة .. فبينما كنا نتناول الشاى علي الكافتيريا.. وكانت رندة عبد الحميد تجلس على الطاولة المجاورة، لمحها الحناوي وهى تعطى الجرسون ورقة بعشرة دورلارات.. وبدا الجرسون حائرا.. فلم يكن يملك نقودا ليعيد إليها الباقى بعد اقتطاع ثمن المشروبات وقربها من أنفه. إلا أنه أعادها إليه وهو يعتذر عن عدم وجود «فكة» معه، استدعاه الحناوى وهو يتظاهر بالبحث فى جيوبه عن نقود ليفك العشرة دولارات .. ثم تناول الورقة، تابعت الموقف بدهشة وسألته تفسيرا فقال ضاحكا:

ـ أردت التأكد إن كانت النقود تفوح برائحة نفطية أم لا ..!!

ثم زاد مفسرا وهو يميل على أذنى هامسا :

- صاحبتك هذه من اللائى يشملهن احسان الأمير عبدالمحسن الموسر..

- وزير الشئون الدينية فى مملكة جازيا..؟

قال ساخرا: - مئات الطالبات يغرقن فى خيره..!!

وتساءلت فى جدية: - ولماذا الطالبات فقط..؟! أعنى هناك أيضا آلاف الطلاب الذين يستحقون المساعدة؟!

قال ضاحكا وهو يتابع أنين ردفيها تحت حصار البنطال الضيق بينما كانت تغادر المكان.

- يبدو أن أمراء جازيا لديهم اعتبارات أخرى لتقديم المساعدة غير الفقر!

واقتضى الأمر أن أفعل ما لا أطيق.. مد جسور التواصل ثانية مع رندة عبد الحميد.. ويبدو أنها فسرت توددى إليها علي أنه انتصار لكبريائها.. فلم أبه، واكتشفت أن إحدى صديقاتها المقربات جدا إبنة وزير الدفاع.. وهى طالبة فى كلية العلوم السياسية.. كانت تزورها فى بيتها .. نقلت مالدى إلى المقدم النقاش .. ففاجئنى بعد عدة أيام بما أذهلنى.. أن رندة عبد الحميد ترتبط بعلاقة خاصة مع الوزير نفسه..!!

هذا هو الحدث الذى أضاء أسئلتى القديمة حول بكارة رندة عبد الحميد بالإجابة القاطعة.. فقد صدم المقدم النقاش أذنى بعد ذلك بتسجيل لقاء حميمى بين الوزير والطالبة.

- ولماذا لا تقبضون عليها؟ ولماذا يترك الوزير فى مكانه..؟ وجازيا الجارة الصديقة .. لماذا تتجسس علينا..؟!

تدفقت ألف لماذا ولماذا من داخلى المذهول .. بعد أن استمعت إلى التسجيل..فألح لى النقاش فى لقاء تال أن أجهزة الأمن تمكنت من توظيف رندة لحسابها ..وقد أسدت لهم خدمات جليلة حين أمدتهم بأسماء عشرات الطالبات العضوات فى الشبكة وتفاصيل عن نشاطهن فى إقامة

علاقات بمسئولين فى سفارات الدول الأجنبية.. أما وزير الدفاع فقد أقيل من منصبه ..

ألهذا كان ترتيبى الأول على الدفعة..!! لكننى لم أهمل أبدا دراستى.. وما اقتصر استذكارى على كتب ومذكرات الأساتذة.. بل كل سؤال فى الامتحانات النهائية.. كانت اجابتى له بما يشبه البحث.. كتاب أستاذ المادة مجرد مرجع واحد فقط من مراجع كثيرة كنت لا أكف عن التنقيب فيها طوال شهور الدراسة وما كنت أكتفي بذلك في إجاباتى.. بل كنت أبثها أيضا أرائى الخاصة.. لذا أرى أن صدارتى للدفعة أمر طبيعى مع ما بذلته من جهد.. لكن المكافأة.. فاحت رائحتها من سؤال العقيد النقاش لى.. «أصبح عقيدا عقب اكتشاف شبكة طالبات الجامعة»

ـ فى أى الدول تحب أن تكون منحتك الدراسية..

فقلت وعيناى تزغردان بالنشوى المزوجة بالامتنان ..

ـ أمريكا .. هارفارد..

قال ضاحكا.. ـ ولماذا هارفارد..؟!

ـ جامعة شهيرة وعريقة..

كان يضمر شيئا آخر.. أن تكون المنحة في نيويورك أو واشنطن حيث البعثات الدبلوماسية.. والهدف سهولة الاتصال بأى من رجالنا في البعثتين .. وافقت .. واتفقنا علي جامعة واشنطن.. ولم ينس في زيارتي الأخيرة له أن يبثنى نصائحه فى ألا أكون انطوائيا.. كأنه كان يخشى .. رغم نجاحاتى فى ايطاليا والجامعة من أن أتعرض إلى انتكاسه في اميركا.. وأرتد ثانية إلى منذر عبدالمهيمن المختزل إلى خلية واحدة فزعة.. ولم ينس أيضا أن يدس فى جيبى ورقة تحتوى على «بعض البيانات المقتضبة..

ـ عنوان ورقم هاتف الاستاذ شاكر الهنداوى مستشارنا السياسى فى واشنطن.. كن على اتصال به دائما..

غادرت إلى أمريكا وتحت الجلد دبيب قلق : لكنه القلق الإنسانى

الطبيعى الذى يمكن أن يواجه المرء وهو يخطو نحو تجربة جديدة.. وليس قلقا خاصا بمنذر عبد المهيمن.. ذلك أن ليالى الشتاء البعيدة لم تعد تطاردنى بوحشيتها.. بل أنا الآن الذى أرغب فى مطاردتها .. ليتها تعود.. لكى أبتر يد ابن الخالة إن امتدت تنزع عنى سروالى..!!

وتلك القوة التى أصبحت عليها فى مواجهة الآخر.. شحننى بها الآخر نفسه.. حين واجهته في المعتقل والجامعة وأوروبا ..لأكتشف أنه ليس بالسوبر.. ولست أنا بالواهن الفقير فكرا وذكاء.. بل في كثير من الأمور كنت أنا السوبر.. وليس هو، كما أن الاخر.. وهذا ما أدركته في أوروبا تحديدا ليس بعبعا.. حواسه مسلطة علي منذر عبد المهيمن ..دون كل البشريترقب خطاياه ليهدر دمه.. الآخر كان ينصت إلى ما أفعله بهالة اعجاب كأننى أتيت بما لم يأت به غيرى.. فإن أخطأت كان يقول لى ما فعلته جيدا.. لكن من الممكن أن يكون أفضل لو اتبعت هذا الاسلوب أو ذاك.. ولم يختلف الأمر كثيرا فى أمريكا، الآخر كان يمنحنى فضاء من الشجاعة أجهر فيه بأخطائى دون خوف.. بل استقبل ملاحظاته بإرادة واعية قادرة على تصحيح ما هو فاسد.. قد يكون إدراكى هذا ليس صحيحا كلياً.. لكننى فى حاجة إليه.. لأبنى مجدا لى ولبلادى حين أطرق أبوابا لم يطرقها أحد.. التوغل فى ذلك النفق السرى والذى لم يطأه فكر انسانى من قبل.. أعنى هذا النفق المعتم الذى يربط بين القوى الخفية في دواخلنا والتي لا يعترف بها أرباب العلوم الحديثة وبين العلوم الحديثة نفسها..

وكانت رسالة الماجستير حول تلك الظاهرة الغريبة.. مغادرة الروح الجسد والعودة إليه.. لذت بكتاب الفراعنة العظيم «كتاب الموتى» مستشهدا بتجاربهم المثيرة فى هذا الأمر، كنت آمل أن يمتد بى العمر نصف قرن أو قرن لأغوص أكثر فى مجاهل هذا الكتاب الذى أظنه الأهم فى تاريخ البشرية.. عدة عقود أمضيتها فى دراسته.. ولم أبرح عنوانه إلا قليلا!!

توقفت كثيرا فى رحلتى مع كتاب الموتى أمام ظاهرة «كا» و«كا» هذا يا سيدتى هو الإسم الذي يطلقه الفراعنة علي الجسد الأثيرى.. أو ما نطلق عليه نحن القرين، يستطيع «كا» الابتعاد عن الجسد فى بعض الحالات ثم يعود مرة ثانية، وفى أمريكا قلعة العلوم الحديثة، اكتشفت ما أثار دهشتى وسعادتى معا.. العديد من الناس يولون اهتماما عظيما لـ «كا» ومن بينهم السيدة بلافاتسكى التى تترأس جمعية يمارس أعضاؤها تجربة شطر الجسد الأثيرى عن الكيان الانسانى .. توجهت إليها وبحت لها بطموحاتى، ففتحت لى بمودة خزائنها المكتنزة بمعارف عن الجسد الأثيرى أعانتنى كثيرا فى دراستى.. وبالطبع لم تنس أن تعلمنى.. كيف ينبثق جسدى الأثيرى من جسدى الطبيعى نائيا عنه فى رحلة سلام مع النفس .. مع الناس .. مع الله.. وفجرت التجربة داخلي نهما للمزيد فتوجهت إلى العراف الأمريكى الشهير «إدجار كوك» الذى كان يمارس هذا الانبثاق بانتظام.. وقد منحنى نسخة من كتابه العظيم.«الخروج من الجسد» كان مرجعا مهماً أثرى رسالة الماجستير.. وعلمنى الرجل معالجة المرض عن بعد.. وتحت إشرافه نجحت فى علاج عشرات من المرضى المقيمين فى ولايات أخرى.. وأتذكر ما قاله لى الرجل فى آخر لقاءاتنا:

ـ مع أن لديك الآن ما لدى.. لكنك سوف تفيد الإنسانية أكثر منى.. ففى بلادكم مازال اعتقاد الناس فى أمور مثل هذه قويا.. أما فى أمريكا.. فالناس مهووسون بالطب الحديث .وقليل من يطرقون بابى لأعالجهم .. المهم ألا تتاجر بهذا الشىء..؟!

وقد تظنين سيدتى لما أبدو عليه من ثراء أننى لم ألتزم بنصيحته الأخيرة.. وهذا غير صحيح..لقد التزمت بها .وعالجت العشرات من الفقراء مجانا.. أما ثرائى فمرجعه إلى الهدايا التى كنت أتلقاها من أمراء وأثرياء دول المنطقة مكافأة لى على نجاحى فى علاجهم وذويهم من أمراض مستعصية وقف حيالها الطب الحديث عاجزا»

هل تتذكرين روبرت تايلور؟! لقد حدثتك عنه مرة..إنه مؤلف كتاب

«الجسد الأثيرى،» لقد علمنى هذا الرجل كيف أمارس مع شخص آخر تجربة الخروج من الجسد، وبموجب اتفاق مسبق.. خضنا التجربة سويا.. حيث انزلقت بنعومة في رحب اغفاءة.. شعرت خلالها كأن ثوبا هفهافا ينسحب من فوق جسدى.. له ادراكه الخاص الممتد إلي إدراك جسدى الطبيعى.. ثم يلتقي هذا الثوب الهفهاف بذات الشيءالمدرك الذى انسحب من جسد: (تايلور) ليحدث بين المنفصلين ماهو أقوى من التماس ودون التلاحم.. لكن لكل منهما ادراكه الخاص.. يرتفع الجسدان عن الفراغ المنظور إلى فضاء غير منظور .. يسبحان في لجج من شعاع يغذى الجسدين بالنشوة.. يهبطان على كوكب بلا يابسة ..بلا ماء.. لكنه كيان ليس من فراغ..يدركانه جليا.. ويعجزان عن وصفه.. يهيمان به.. فيه أياما أعواما .. دون أن يلفظا ملكة الادراك الأرضى.. واع أنا كنت إلى أننى منذر عبد المهيمن طالب الماجستير في جامعة واشنطن ..لكننى لست قلقا إن غبت عن دراستى تلك الأعوام.. وحين عدنا ..لم يكن قرارى وحدى أو قراره.. رغبة ومضت فى أنا الإدراك فى جزئى وجزئيه فى ذات اللحظة.. بدأ على أثرها ببطء شديد الجسد الأثيرى يسبح عائدا إلى الجسد الوطن بغير شوق.. بغير ندم .. هالنى بعد أن إتحد الادراكان.. أن عقارب الساعة لم تزد حركتها عن بضع دقائق.. وقلت فى نفسي ربما كان ذلك في يوم آخر.. شهر آخر.. سنة أخرى.. ولاحظ رفيقى وأستاذى مستر تايلور حيرتى.. فأشار مبتسما إلى النتيجة لأجد نفسى فى ذات اليوم وذات الشهر وذات العام، تلك التجربة سجلتها بإسهاب شديد فى رسالة الماجستير وأثارت جدلا شديدا واضطررت أن أنقل ما تعلمت إلى البروفيسور جيمس بلاك المشرف على الرسالة وبعض أساتذة الجامعة.. بل وأصحبهم في رحلات أثيرية مشتركة.

واسمحى لى سيدتى أن أورد هنا ما كتبه البروفيسور بلاك معلقا علي هذه التجربة فى رسالة الماجستير :«إن هذه الرسالة بما تحتويه من دراسات وتجارب تفتح أمامنا أبواب الكيان الإنسانى ليبوح بإمكاناته

الهائلة لأن نحيا فى سعادة ولآلاف الأعوام.. المهم أن نتوصل إلى هذه الإمكانات .. ونعرف كيف نسخرها لخدمة الإنسان.. ومن بين هذه الإمكانات انشطار الجسد الأثيرى، الأمر ليس وهما أو أحلام يقظة.. ففى تجربة مثل هذه يبدو الجسد الطبيعى ميتا أو شبه ميت ولا تتجاوز حركته البعد الميكانيكى بلا إدراك .. لكنه فجأة تدب فيه ومضة إدراك مثلما تعلق الأمر بقرار العودة.. هل لذلك علاقة ما بنسبية الزمن .. أعني نظرية العالم العظيم اينشتين؟ حيث يسافر الجسد الأثيرى فى رحلته بسرعة قريبة من سرعة الضوء فيتخيل أن الرحلة استغرقت شهورا وسنينا.. وفى حقيقة الأمر لم تطو من الزمن سوى بضع دقائق..

وربما تتساءلين يا سيدتى.. لماذا لم تنل رسالة الماجستير ماتستحقه من اهتمام إعلامى فى بلادى ومنطقتنا بأسرها..؟ إن ذلك فى الحقيقة يتعلق بسؤال طرحه البرفيسور بلاك.. وهو: هل كانت ظاهرة الإسراء والمعراج التى خاضها نبى المسلمين محمد بن عبد الله رحلة بجسده الأثيرى..؟

وأجبته بأن هذا غير منطقي، لأن لا التاريخ .. ولا حتى المأثور الشعبى المتوارث أنبأنا بأن هذا الأمر تداوله أحد من قبل.. خاصة في المنطقة العربية المكتنزة بالأساطير والمعتقدات.. كما أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أسرى به الله سبحانه وتعالى وهو نائم.. والجسد الأثيرى لا ينشطر إلافى يقظة وتركيز شديدين.. وفى كل الأحوال خشيت أن ينتشر الأمر إن شاع مضمون الرسالة من دراسات وتجارب حول التنبؤ بالمستقبل واستقرار المجهول والجسد الأثيرى فأتهم بالزندقة، والعبث بمقدساتنا الفكرية خاصة وأن البروفيسور بلاك نشر مقالا فى صحيفة أمريكية يطرح فيها تساؤله حول إسراء النبى الكريم بالجسد الأثيرى.. وردى على ذلك.. وأحمد الله أن الرقابة فى البلاد الإسلامية منعت دخول الجريدة.. وكما تلاحظين خلال العقود الماضية ومنذ عودتى من الولايات المتحدة الأمريكية ألتزم بأسلوب الباب الموارب.. حيث تركت

فتحة ليطل منها على عالمي من يريد بصدق أن يستفيد مما لدىّ، وفي نفس الوقت لا أثير غضب أحد من الحراس الحديديين لديننا الحنيف إن فهم خطأ «وهذه هي القاعدة»

وعودة إلي تجربة الجسد الأثيرى.. حيث طرح على البروفيسور بلاك سؤالا مهماً عقب عودتنا من رحلة أثيرية مشتركة هو : هل مثل هذا الأمر متاح للانسان العادى..؟ من وجهة نظره.. وتلك كانت وجهة نظرى إن الإجابة : نعم.. هذا ممكن!!لكن طرحه للسؤال لم يكن بهدف معرفة وجهة نظرى.. بل تحريضى للحصول على إجابة علمية من خلال التجارب وهذا ما فعلته، وكانت العينة عشوائية ضمت أنواعا مختلفة من الذكور والإناث من أعمار وعرقيات وبيئات متباينة.. كانت النتائج مرضية، خمسة فى المئة من أفراد العينة تمكنوا من فصل الجسد الأثيرى فى المحاولة الثانية«المحاولة الأولى انتهت بالفشل التام» وفى المحاولة الرابعة عشر تمكن سبعة وستون فى المئة منهم من التمتع برحلات رائعة بأجسادهم الأثيرية فى أنحاء الكون.. وقد انتهيت إلى أن الأمر ممكن، والمعوقات تكمن في غلبة التفكير المادى العصري على عقولنا.. بل وسيطرة عقولنا على مداركنا اللامرئية مما لا يتيح لهذه المدارك المهملة أن تشحن بالقوى الروحية وتقود..

لكن ثمة ملاحظة مهمة... تتعلق بنقص كبير فى تجربة الجسد الأثيرى .. إن الذين نجحوا فى ممارستها من أشخاص عاديين حققوا ذلك لأننى كنت دائما معهم... وحين قرروا إجراء التجربة بغير إشراف فشلوا... بل إن البروفيسور بلاك نفسه اعترف لى مرة أنه لم ينجح فى شطر جسده الأثيرى بغير وجودى إلا بعد عشرات التجارب الفاشلة..

ولهذا لم أستطع ـ لو تتذكرين ـ أن ألبى رغبتك حين سألتنى مرة إن كان بمقدورك السباحة بجسدك الأثيرى بعيدا عن الواقع الأرضى، ذلك إن نجاح التجربة كان مرهونا بوجودى.. وما كان هذا ممكنا ابدا..!!

لكننى لم أتجاهل أبدا رغبتك.. أمضيت وقتا طويلا أبحث فى إمكانية السباحة بالجسد الأثيرى دون وجود مشرف .. وأخيرا توصلت إلى بعض

التمارين التى تتيح لأى إنسان أن يتعاطى هذه المتعة الروحية.. وطبق سكرتيرى هذه التمارين وبعد عدة محاولات نجح.. كما نجحت زوجته في التحليق من المحاولة الثالثة..

وأقدم إليك هذه التمارين إن لم تكونى قد أطلعت عليها فى رسالة الدكتوراه الخاصة بى.. فربما فكرت فى تطبيقها للنجاة من مناخ افريكاسيا المشبع بالمؤامرات..

- إجلسى مسترخية على المقعد.. وابعدى عن ذهنك كل الأفكار التى تثير قلقك وتوترك..

- إحرصى على أن تكون الغرفة هادئة ودافئة ومظلمة أو شبه مظلمة.. وأن تكونى فى حالة انقطاع عن العالم الخارجى.. لاراديو ولا تليفون ولا ضجيج يقتحمك من الشارع..

- ضعى يديك على ركبتيك ..بحيث تكون الراحتان باتجاه الركبتين..

- تنفسى بعمق حتى يصبح تنفسك منتظما وتمارسين التنفس العميق بصورة آلية دون أن تفكرى به..

- إلى أين تريدين السفر..؟! جزر الهاواى.. اليابان.. المريخ.. تستطيعين ذلك.. فقط ركزى كل تفكيرك فى هذا الأمر.. وينبغى أن تقنعى نفسك تماما بأنك تستطيعين أن تفعلى ذلك.. ثم رددى بينك وبين نفسك بهدوء وثقة.. جسدى الأثيرى سيبتعد عن جسدى المادى.. إننى مستعدة الآن.. وجسدى الأثيرى على استعداد للإنطلاق ..أريد أن انطلق الآن.. التزمى الصمت بضع ثوان ثم عاودى تكرار ما قلتيه..

- إذا نجحت هذه التجربة.. فإن الجسد الأثيرى سينطلق ويستطيع العودة فى أى وقت تريدينه.. وإن لم تنجح التجربة عاودى الأمر ثانية وثالثة... فنجاحك يتوقف على تطهير ذهنك من أشواك القلق، وإتاحة الفرصة لقواك الروحية للإنطلاق.. أتذكر أننى قلت لسيدتى فى صفحات سابقة أن العراف الأمريكى الشهير ادجار كوك علمنى كيف أستخدم تجربة الخروج من الجسد فى معالجة المرضى عن بعد.. وأننى حققت

بعض النجـاح فى هذا الأمـر.. إلا أننى فكرت فى تطوير أسلوب ادجـار كوك والذى يرتكز أصلا على حالة الانتشاء النفسى التى تنتاب المرء خلال خوضه تجربة الخروج من الجسد .. ثم الشعور بالارتياح الذى يتلبسه بعد العودة وتبادل أحاديث مع المريض تحثه على عدم الاستسلام للمرض.. وشحن ذهنه بفكرة الشفاء..

هذا الأسلوب نجح فى معالجة أمراض عادية.. لكنه بدا عاجزا أمام أمراض مستعصية كالسرطان وأمراض الكبد والكلى إلا أن فكرتى فى التطوير كانت ومازالت تعتمد على أن يستخدم الجسد الأثيرى سطوته فى توجيه الجسد المادى.. وقد حققت نجاحا معقولا فى هذا الأمر.. حيث تمكنت من معالجة امرأة أمريكية من السرطان.. وهو ما فشل فيه العراف ادجار كوك.. لكن الذى ساعدنى فى تحقيق مهمتى أن المرأة كانت مكتنزة بالقوى الروحيـة.. تلك القوى التي لازمت الجسد الأثيرى حين غادر جسدها.. وسافر إلى مصر الفرعونية لتلتقى بالفرعون اخناتون الذى تحبه.. وقد ملأها هذا اللقاء بإحساس فائق بالسعادة منح بدوره الجسد الأثيرى قوة إضافية دعمت سطوته على الجسد العادى.. وكان دورى توجيه الجسد الأثيرى ليصدر أوامره للمخ فى الجسد الطبيعى بمضاعفة القوى المناعية في الجسم لخوض معركة البقاء ضد الخلايا السرطانية.. كان النجاح باهراً، وهذا ما أكدته التحاليل الطبية التى أجريت للمرأة بعد ذلك..

ولم أكتف بنجاحى فى تسخير تجربة الجسد الأثيرى فى علاج مستعصية.. فلقد راودتنى ، بل ألحت علىَّ فكرة انبثقت من بؤبؤ الجنون أن استخدم ذات الشىء لأقود انقلابا على اسلوبنا البالى العقيم فى الفعل الجنسى.. ذلك الفعل الذى وهبنا الله إياه ليكون نبعا للانتشاء الإنسانى لا يوازيه فى حلاوته نبع آخر.. لكن هذا الانتشاء لا نحصل إلا على القليل منه، بل حتي هذا القليل يحرم منه الكثيرون، فلا يجرع الجسد من الجسد إلا ماء نار.. بينما ينشطر الجسدان بعد ذلك بصحراء من النفور الجليدى.

وكان هاجسي كيف لي أن أوظف تجربة الجسد الأثيري في بلوغ ذروة الانتشاء الروحي..؟!

وواتني الإجابة وأنا أشاهد عبر التلفاز انفصال مركبة فضائية عن الصاروخ الذي أطلقها لتسبح في مدارها بالفضاء.. وقلت لزميلتي سوزان جولد مان والمبهورة بعالمي الجديد عليها إننا نستطيع أن نفعل شيئا شبيها .. يلتصق جسدانا الماديان وبعد لحظات من ولوج فراغات اللذة ينفصل الجسدان الاثيريان ليسبحا كينونة واحدة في عوالم هي فيها الملكة والمملكة والرعية في شوق لا ينتهي إلى ارتواء تصل إليه بغير نقصان.. وفوجئت بسوزي رغم عدم وضوح الأمر تعانقني في صخب طفولي.. وتجذبني إلى هذا الشيء الذي أتحدث عنه..

وكان فشلا ذريعا .. ربما لأنها تجربتي الأولى.. ربما لرواسب من زمن التقزم مازالت عالقة في القرار البعيد للنفس.. لكنني عزمت على ألا أفقد مكاني علي عرش الاعتلاء.. قلت لها:

- اسمعي يا سوزي.. حتى في العلاقات الطبيعية لا يكون الأمر هكذا .. الجنس لمسة تتويج لحالة نفسية وعاطفية مواتية «ما أتينا به الآن مجرد فعل ميكانيكي لجسدين.. ولا شيء آخر.. الأمر ليس هكذا.. أو على الأقل أنا لست هكذا.. لماذا لا نكسبه شذى رومانسيا روحيا..؟!

وقالت في انفعال ..كأنها تبرئ نفسها من مسئولية ما حدث..

- هذا الأمر لا يعنيني.. صداقتنا تمتد إلى أكثر من عام.. ومع ذلك لم نفعل هذا الشيء من قبل.. الآن تصورت أن هذا مأربك أنت..!!

بدت وكأنها تشكل كلماتها من مشاعر خيبة الأمل التي تطفح بها مسام جسدها .. احتويتها بذراعي في شفقة وقلت:

- لا أعني إيذاء مشاعرك.. لكن ما أتوق إليه شيء آخر.. لم يفعله بشر من قبل.. عموما الفشل كان واردا كما تعلمين في تجاربي حول الجسد الأثيري..أنت نفسك فشلت أكثر من مرة... لكن النجاح دائما كان يأتي.. فلا تقلقي..

دعوتها فى أحد الأيام للخروج إلى نزهة.. فوق هضبة تطل بشكل حاد على المحيط أمضينا ساعات الأصيل أحدثها عن تلك الطاقات الروحية الهائلة التى بثها الله الانسان ليكون سعيدا.. وأن السعادة تبلغ ذروة نشوة الارتواء بالجنس الروحى ..جسدا حبيبين ينصهران فى بوتقة التآلف الروحى الذى وحدهما من قبل.. ليفجر انصهارهما شرارة ميلاد زمن جديد فى كون جديد من المتعة الأثيرية..

قلت لها مبرهنا، إن الانسان هو الكائن الوحيد الذى يمارس الجنس وجها لوجه..!!

وأخذتها الدهشة للحظات .. ثم صاحت وهى مأخوذة

ـ نعم.. هذا صحيح..لكن لماذا..!!

وقلت وأنا احتوى كتفيها بيدى وفيض من مشاعر المودة تتدفق من عينى إلى كيانها المأخوذ:

ـ لأن ما يبحث عنه الإنسان هو الحب .ولقد أتاحه الله له فى رجفة شفتى الآخر.. فى ذلك الشعاع الخافت الآسر.. الذى ينبثق من بين الجفنين المواربين.. فى تنهدات الصدر.. لا أحد يرى هذا .. وإن رآه وارتوى به.. اكتفى ..أنا وأنت لن نكون مثلهم.. بهذا القليل نكتفى..

كأن القمر فى سمائه قد غشاها بغلالة بيضاء.. ومن ضى عينيها تلقم شاعريته..أتطلع إلى القمر.. إليها.. أتساءل : من منكما حمم الآخر بضياه..؟! نسرين زهدى . أم القمر؟!

وفى انبثاق الطلائع الأولى للنشوة بعينها تسألني: ماذا تعنى كلمة.« نسرين زهدى»؟ قلت : تعنى الحلم المستحيل.. فقالت فى شجن:

ـ لكننى معك الآن..

قلت وذراعاى تنبسطان فى الفضاء : نسرين زهدى.. الحلم الأسطورى..

تلج قوس ذراعى.. فأحكم حصارى حولها برفق: إلفى الذى أترقبه بكل سنوات عمرى.. يتسع قوس ذراعى لتذوب داخله كل المسافات

أمامها.. تدنو.. تهجع داخل القوس.. تسرى رجفة من جسدها المستسلم للوعد الغامض .. حملتها بين ذراعى وأودعتها فى رفق مخدع الهضبة المزدهر بضى القمر الفضى.. أحررها من غلالتها الناعمة ليغمر جسدها كونى المظلم بالضياء.. تتناثر خلاياها فى الفراغ آهات غواية للنجوم فتلتحم معها فى رقصة خلود ينتشى لإيقاعها المحيط فيزداد هديره جنونا.. فى عينيها الناعستين إلا من شعاع الخدر يتدفق همسى أن تنزع من إدراكها جسدى.. جسدها .. المكان.. تستجيب فى وهن: الفضاء..!!

- نعم .. الفضاء..

لكن الجسدين الأثيرين يكابدان فى الانشطار .. وحين انشطرا تشدهما انتفاضاتها الحادة إلى العودة ألح فى أن تهدىء من حركة جسدها المادى.. تكاد تبكى لصعوبة الاستجابة .. بل إن عينيها تتوسلان أن أسرع الحركة.. لا أستجيب.. كأن صراعا هائلا بين توق الجسدين الأثيرين للتحليق فوق السحاب وسطوة الجسدين الماديين اللذين يأبيان إلا فعلا أرضيا..!! هتفت وهى تسحب شهيقها بصعوبة..!!

- رائع.. لكن..!!

قلت وأنا أهجع بجوارها.. - كم من الوقت أمضينا..؟!

- لا أدرى.. ربما ربع ساعة..

- لا تكفى.. ما أريده ..ساعات.. تصل فى الزمن الأثيرى دهورا..

أردفت فى شك: كأنك لا تفهمين ما أرمى إليه..

- أنت الذى لا تفهم حالة جسد المرأة فى هذا الوضع..

وأردفت ضاحكة:

- كأن ثورة اشتعلت فى مدينة لا قبل حتى للقنابل الذرية فى إخمادها..!!

بعد أقل من ساعة عاودت اشعال الثورة فى جسدها

كانت المشقة أقل.. حيث انشطر الجسدان الأثيريان عن الماديين.. حلقا فى الفضاء.. صحبا معهما مراكز ادراك المتعة .. فما عدت اسمع

تنهداتها.. ولا أظنها كانت تصدر آهات.. وبعد دهور من السباحة فى اللاشىء الثرى بوهج من الانتشاء الروحى العميق عاد الجسد الأثيرى يتلبس الجسد الطبيعى.. وكنت أظن أن عينيها ستومضان بشهقة الفرحة الكبرى التى لم تومض بها عينا أنثى من قبل.. لكنها أغمضت عينيها وانسابت فى غفوة.. لم أشأ أن أسحبها منها.. جلست بجوارها أسجل التجربة فى أوراقى حتى لفحتنا شمس الصباح..

وقد استلهمت سوزان جولدمان من ممارساتنا الأثيرية مادة كتابها إلهام رومانسية الجنس ستجدين نسخة منه بجوار أوراقى تلك إن شئت فهى لك..

والسؤال الذى ظل يراودنى طوال هذه السنين : هل كانت ممارساتى تلك ستعبق بكل هذا الشذى الروحي الجميل لو كانت رفيقتى أخرى.. غير نسرين زهدى..!!

وربما تتساءل سيدتى: لماذا الإفراط فى الحديث عن الجسد الأثيرى..!؟

وأجيب لأنه كان المحور الأساسى لرسالة الدكتوراه ولأننى حققت عبر تجاربى وأبحاثى حول الجسد الأثيرى نجاحا يكاد يكون مذهلا .. حيث خرجت بهذا الشىء من الغرف السرية المحاصرة بالريبة.. إلى الناس.. أضىء عقولهم بيقين كنوز أدمغتهم المذهلة.. إننى أتوقع سيدتى لو استمر الاهتمام بأبحاث الجسد الأثيرى.. أن يصبح الانسان خلال عدة عقود طبيب نفسه.. حين يقدر على فهم وإدارة أجهزته الدماغية فى توجيه الأوامر للجسم بمواجهة فيروس ما أو تجديد خلايا تالفة أو إبادة خلايا سرطانية..هذا وغيره ممكن جدا عن طريق انشطار الجسد الأثيرى.. والاستعانة بظواهر دماغية أخرى كالتليباتى والتيليكنسيس والطاقة الحيوية الصادرة عن الجسم، هذه قدرات يملكها الجميع وهذا ما قاله لى عراف روسى عقب تجربة تيليكنيسس.. حيث تمكن من نقل نقود من محفظتى ووضعها فى محفظة البروفيسور المشرف على رسالة الدكتوراه..

كنت أظن أنها قدرات خاصة ميز بها الله بعض الناس .. ووافقنى العراف الروسى على ذلك.. لكنه قال إن هذا لا يعنى افتقار الآخرين لمثل هذه القدرات ..هى موجودة بنسب مختلفة... المهم كيف نزيح عنها الغبار.. وواجهته برغبتى فى إزاحة الغبار عما يخفيه دماغى من قدرات .. تعلمت منه كيفية التليباثى .وكيفية ضخ طاقة حرارية فى مجالي المغناطيسى.وتوظيفها فى علاج بعض الأمراض.. لكن الذى أرهقنى جدا تعلم التليكنسيس .. حيث إن ممارستها تستدعى منى جهدا هائلا..

«بالطبع تتذكرين الآن فشلى ذات مرة فى إجراء تجربة ..Telekinsis أمامك ..حين طلبت منى أن أحرك فنجان قهوة من مكانه على الطاولة.. لقد حان الوقت لأن أشرح لك لماذا فشلت؟ هذا ما سأفعله فى آخر صفحاتى تلك..»

كما أن «التليباثى» لو فهمنا آلية عمله يمكن أن يساهم فى معالجة الأمراض.. إن كان دماغ المريض غير قادر على إصدار أوامره للقوى المناعية بمواجهة فيروس ما .. فيمكن أن يقوم بالمهمة شخص آخر عن طريق الاتصال بدماغ المريض عبر التليباثى.. ثم السيطرة على قواه الدماغية وبالتالى على جسده.. وفى هذه الحالة ستستجيب القوى المناعية للمريض إلى أوامر الشخص.. «ما لا أفهمه حتى الآن نجاحى المتواضع فى مجال التليباثى فمن بين كل عشر تجارب.. ربما تنجح تجربتان أو ثلاث.. وحتى فى مرات النجاح تلك يتعرض الاتصال بينى وبين الآخر للانقطاع»

بدت المادة العلميـة التى كنزت بهـا الرسـالة فى عين أسـتـاذى البروفيسور بلاك مبهرة.. لهذا نصحنى بأن أتقدم بطلب لتعديل الرسالة من ماجستير إلى دكتوراه طبقا لنظام ma-bhd.

وأجيزت الرسالة وحظيت بتقدير الدوريات العلمية فى أمريكا.. وقال البروفيسور جورج أولبرايت رئيس تحرير دورية العلوم الحديثة إن الدكتور منذر عبد المهيمن قد أضاء شمعة فى هذا النفق المظلم ما بين نوعين من العلوم، أرباب كل منهما ينظرون ليس فقط بارتياب إلى ما تحت عباءة الآخر.. بل أيضا بازدراء..!! ليغمروا بأبحاثهم هذا النفق بشمس الحقيقة.. فربما اكتشفنا أن د. عبدالمهيمن كان المبشر الصادق حين قال فى رسالته أننا إزاء علم واحد.. وليس علمين..!!

أظنك تتساءلين الآن: وأين العقيد رفعت النقاش من كل هذا..؟!

وأجيب : كان يلازمنى .. أعنى كفراغ وجدانى أخفق أى آخر التقيت به فى ملئه.. وكان يلازمنى أيضا كإهتمام لم تطمسه أبحاثى فى رسالة الدكتوراه..بل إن هذه الأبحاث كانت - أعترف - الشراك الذى سقط فيه طلاب مهمون من الدول الشقيقة والصديقة باحوا بمعلومات تصنف فى بند «مهم جدا.. وعاجل للغاية»..!!

بعض هؤلاء الطلاب كانوا أبناء شخصيات تحتل مراكز قيادية في بلادها «ثلاثة منهم الآن حكام»

ومن خلال علاقتى ببعضهم أمسكت بخيوط مؤامرات تدبرها واشنطون بمساعدة من دول في المنطقة للإطاحة بهذا النظام أو ذاك.. ولعلك تتذكرين الانقلاب الذى قاده الأمير نواف القصابى على والده.. مبكرا منذ اللحظات الأولي التى أدخلت فيها المواد الخام للمؤامرة فى المراكز السرية للسى آى ايه.. علمت بما يجرى.. إبن عم الأمير نواف.. الأمير فهر.. أخبرنى بأن واشنطن تعد الأمير نواف ليتولى مقاليد الحكم بدلا

من أبيه الذي رفض أن تستخدم مطارات بلاده لتنطلق منها الطائرات الأمريكية في غاراتها على جمهورية كرامستان، وتنديده بالهجوم..

الأمير فهر أطلعنى على ما يدور فى اللقاءات السرية بين عميل فى السى أى ايه والأمير نواف.. بل كنت أشعر بأن لديه ما يود أن يقوله.. مدفوعا ربما بإضفاء هالة من الأهمية على ذاته.. ذلك أنه كان يؤلمه نظرة الناس إليه.. إنه أمير بلا سلطة.. فلا تربطه هو وأخوته وأبوه المغضوب عليه بسدة الحكم فى سندستان إلا أن كشوف العطايا المخصصة لأفراد الأسرة المالكة تضم أسماءهم .. كما أنهم يحتلون مكانا متقدما عن المسئولين من خارج الأسرة فى قائمة البروتوكول ودليل الهواتف..!! فخلال أمسية أمضيناها على ضفاف طموحاتى العلمية.. قلت له إننى أحلم بتأسيس مركز للأبحاث العلمية هدفه التنقيب عن ذلك النفق الذى يصل ما بين العلوم الحديثة وعلومي.. قال ضاحكا فى زهو: لا تشغل بالك بهذا الأمر.. هذا المركز هدية من وزير خارجية سندستان إليك..

وشممت رائحة شيء غير طبيعى فى حروفه.. فقلت:

- كيف.. والأمير صقر وزير الخارجية فى بلادكم يده شحيحة علي ما يقال:

قال وعيناه تزغردان بالزهو: - نعم.. لكن الأمير فهر يختلف..؟

قلت محرضا له على الكلام:

- يبدو أن لديك ما يسعد صديقك منذر..

قال فى اقتضاب : - إن شاء الله سوف تسمع قريبا أخبارا تسعدك..!!

وبدا غير راغب فى الحديث .. فلم ألح..

وبعد عدة أيام زارنى ، وبدأحديثا عاما عرج فيه إلى الجنس الأثيرى ، حيث سألنى إن كان بمقدور أى انسان تحقيق ذلك؟! ولم يخف على أنه تعرف على صديقة استرالية ويريد فى أول تجربة معها أن يزلزل كيانها بما لم تألفه.. ومنحته الوصفة التى يريد ، لكنه فاجأنى فى صباح اليوم التالى فى ساحة الجامعة بنظرة مهزومة، سألته: ماذا بك؟ فقال إنه سيعرج عليّ مساء..؟

وحين جاء.. ألقى بجسده فوق الكنبة التي بدت وكأنها قبر يسعى إليه تحت وطأة حالة شديدة من الاكتئاب..

سألته: - أهي الاسترالية..؟!

قال في إحباط : فشلت

قلت ضاحكا: - إذن العيب في وصفة منذر..؟!

قال وهو يغتصب ضحكة بدت كالحشرجة:

- بل في فهر .. فشل منذ اللحظة الأولى:

قلت محاولا إيجاد منفذ إلى ما بداخله: - الحرب على جبهتين في وقت واحد مستحيل.. الاسترالية وسندستان معا.. كيف..؟

أردفت للتوضيح بلغة سوقية:

- في قريتنا يردد الرجال المحنكون : ريح ده.. يشتغل ده!!

كنت استخدم يدى فى الاشارة إلى رأسى أولا ثم إلى نصفى الأسفل..!! وقلت مردفا

- يبدو أن في سندستان ما يحول بينك وبين الاسترالية..!!

استرخت تقاسيم وجهه قليلا .. وبدا وكأنه فى حاجة إلى حبل المبررات الذي أمده له.. شحنت حروفي بالقلق الممزوج بمشاعر التعاطف:

- ماذا بك يا أمير..؟!

قال متخابثا: - وهل ما حدث مع الاسترالية بالأمر الهين..؟!

- حتى الآن هو هين.. لكن ربما لا يكون كذلك إن استمر..

تقلصت تقاسيم وجهه في فزع..سألت: - هل تحبها..؟!

- ليس حبا .. لكن..

- لكنها الرجولة..؟!

أردفت ضاحكا.. - أنا نفسي مررت بهذه التجربة..

قال في لهفة.. - وكيف كان العلاج...؟!

- اختليت بنفسي ..شخصت المسألة.. أسباب نفسية.. حالة من التوتر الشديد..أمر ما كان يشغلني في تلك الفترة..استدعيت صديقا، ألقيت ما

بداخلي بين يديه وشعرت بالارتياح لأن سر قلقي يشاركني فيه آخر.. فانخفض منسوب التوتر .. النساء والقلق يا صديقي الأمير لا يجتمعان معا في فراش رجل..!!

كانت جدرانه آيلة للسقوط.. بدأ يحكي بتردد عن تجهيز الأمريكيين لابن العم الأمير نواف لكي يتولى مقاليد الحكم..

ـ وسيتولى صديقي الأمير فهر وزارة الخارجية..؟!

سأل في دهشة: ـ وكيف عرفت..؟!

قلت : ـ ألم تلمح لي بذلك من قبل حين كنا نتحدث عن مشروع مركز الأبحاث العلمية..؟!

قال وهو يحاول أن يغتصب ضحكة:

ـ وأنا عند وعدي.. المهم أن ننجح..

قلت في محاولة لدفعه لمزيد من البوح...

ـ لو كنت مكانك لما انشغلت إلا بالاسترالية..؟

ـ لكن ساعة الصفر بعد أسبوع..؟!

ـ يا أخي أمر سندستان سيتولاه الأميريكيون.. أما أمر الاسترالية فلا ينفع معه سواك..

ـ كيف..؟!

لم تنجح ضحكته التي غلف بها سؤاله في طمس ما بداخله من توتر عنيف.. وقد انتابتني في تلك اللحظة دفعة من الشعور بالزهو لأنه لم يتلبسني كل هذا القدر من البؤس الذي أراه يطفح من مسام وجهه.. حين فشلت أول مرة مع سوزان .. لم أبخل عليه بالنصيحة.. طلبت منه أن يصحبها بعيدا عن المدينة.. ويمضي معها ليلتين أو ثلاث .. وليترك القياد للجسد اللاواعي..

ـ لا تتخذ قرارا بمضاجعتها.. تنزها سويا.. تحدثا في كل شيء.. إلا هذا الشيء.. شاركها الفراش.. عيشا حياتكما بشكل طبيعي.. وفي لحظة ما ولأسباب بيولوجية بحتة.. ستفيق من نومك.. لتجد جسدك محموما

بالقوة والشوق لاحتواء جسدها..!!

وفعلت معه ما يفعله الأطباء النفسيون فى مثل هذه الحالات.. حيث أعطيته بعض الحبوب وقلت له إن تأثيرها مؤكد جدا في مثل هذه الحالات.. ولم تكن سوى نوع من المهدئات..!!

أبلغت الأمر إلى المستشار السياسى في سفارتنا بواشنطن .. وتوقعت أن تقوم حكومتنا بتحذير حاكم سندستان الوطنى ..لكن هذا لم يحدث .. حيث تم الانقلاب بينما الرجل يشارك فى مؤتمر قمة لزعماء المنطقة عقد فى كرامستان.. بينما التزمت حكومتنا الصمت عدة أيام ثم أعلنت تأييدها للنظام الجديد..!!

وينبغى أن أنوه هنا إلى وفاء الأمير فهر بوعده حيث تكفل بنفقات مركز الأبحاث العلمية فى قصرى هذا.. ربما عرفانا منه بالجميل على نصائحى له بما يجب أن يفعل ليحقق ما يسعى إليه من انتصارات على جبهة الاسترالية..!!

***

عدت من أمريكا لأجد كرسيا لى فى جامعة افريكاسيا بالطبع بمعاونة العميد رفعت النقاش « تمت ترقيته بعد وصولى بثلاثة أشهر وانتدب إلى جهاز المخابرات ».. يومئذ قال لى مازحا:

ـ من حقك أن تمد يدك وتنزع نصف ما فوق كتفى.. وتضعه على كتفك..!!

لكننى أيضا كنت مدينا له بالكثير.. بل ربما باسم البروفيسور منذر عبد المهيمن نفسه.. وطيلة سنواتى فى الجامعة كنت موضع كرم لم يحظ به غيرى.. مؤتمرات ورحلات علمية فى الخارج دوما يتصدر إسمى قائمة المشاركين فيها .. فإن كانت دعوة واحدة.. فهى لى.. ودوما كنت نقطة ضوء مبهرة تجذب الإعلام.. وأظن أن الأمر كان مدبرا ليزداد إسمى سطوعا خارج الحدود..!!

وبادلت وفاءهم بوفاء.. لكن بعد أن تعرضت الأجهزة الأمنية للاختراق فى عهد الرئيس رمزى عفوا لا أقصد التجريح سيدتى.. لكنه الانفتاح

الذى بدت معـه جدران الوطن، كـثـوب راقـصـة.. كـفـفت عن التـعـاون المنظم.واختزلت علاقتى بالجهاز على العلاقات الشخصية ببعض كوادره عقب وفاة اللواء رفعت النقاش رحمه الله..

وأظنهم كانوا يعلمون أن البروفيسور منذر عبد المهيمن هو الحاوى الذي أخرج الحية من جرابه.. والحية التى أعنيها - سيدتى - هى الشركة..

ويعلمـون أيضـا بأمـر زياراتك .. لكن اطمـئنى، لا أحـد يبـالى.. إلا عند تصفية الحسابات .. وفى الأجل المرئي أنت خارج المطلوبين ..مادام إبنك عبد الطيب المؤتمن على مفاتيح الشركة..!! أما كيف آلت إليه الأمور...؟

فالإجابة تتطلب أن أطلعك على شىء من تفاصيل رحلتى إلى باريس.. والتى وجدتها محمومة بأمر الشركة.. لم أفصح أبدا عن السبب الحقيقى لوجودى هناك.. قبل المغادرة بيومين سربت خبرا للصحف المحلية ووكالة الأنباء بأننى سأتوجه إلى العاصمة الفرنسية للاجتماع بمسئولى الجمعية الوطنية للقوى الخفية بهدف بحث جدول أعمال مؤتمر جمعيات القوى الخفية العالمية الذى سيعقد بعد ثلاثة شهور، وحين وصلت باريس بدأت سلسلة من الاجتماعات مع العرافين الفرنسيين ، وقد طالبنى البعض بأن أتقدم للترشيح لرئاسة الاتحاد العالمى للقوي الخفية.. وكان مبررهم أننى من خـلال رئاسـتى للاتحـاد أسـتطيع حـشـد التـأييـد الاعـلامى العـالمى لجمعياتنا وتطهير الرؤوس من الأفكار السلبية حول أنشطتنا .. بما يمهد الطريق أمام انجاز مصالحة تاريخية بيننا وبين أساتذة العلوم الحديثة الذين مـازالوا يرشـقوننا بشكوكهم، وأفصح رئيس الجـمعيـة الوطنيـة الفرنسية عن سبب آخر ربما هو الأهم:

- رئاستك للاتحاد سيدفع أمراء منطقتكم كى يشملونا بكرمهم..!! لدينا برامج علمية طموحة فى حاجة إلى إنفاق .

ووعدتهم بترشيح نفسى.. ولا أظن أننى سأفى بوعدى.. « ودعى ما لديك الان سيدتى من تساؤلات حول هذا الشأن ..حيث ستحصلين على إجابة مؤكدة لها فى آخر سطورى.

وحدها السيدة مارى جيبسون السفيرة الأمريكية فى باريس التى كانت تعرف لماذا أنا هناك ، وقد فاجأتنى بلفتة تفوح بكرم براجماتى حين وجهت لى دعوة لحضور حفل عشاء على شرف فريق كرة السلة الاميركى الذى كان يتجول فى أوروبا فى ذلك الوقت.. ورغم أن الحفل ضم عددا كبيرا ومتنافرا من مستهدفى الكرم البراجماتى الأمريكى إلا أن السيدة جيبسون كان لديها من الوقت ما كفل لها الحديث معى عن اهتماماتى بالقوى الخفية، وضخت فى عروقى ما يمكن أن يسمى بجرعة من النفاق الأبيض حين قالت أمام بعضهم إن القرن الواحد والعشرين سيشهد العديد من الاكتشافات المذهلة التى تزيح الحجب عن قوى الإنسان الخاملة وأن البشرية لن تنسى لى فضل التنبيه إلى وجود ذلك المضيق ما بين بحرى العلوم الحديثة وعلوم القوى الخفية التى لن تكون خفية بعد بضعة عقود، ثم أردفت وهى ترمقنى بنظرة خلتها تنطوى على رسالة خاصة بى.

ـ مكتبتى فى المنزل لاتخلو من مثل هذا النوع من الكتب .. لكنها ليست حكرا على اطلاع أهل المنزل..

قلت مجاملا : سعادة السفيرة خير من يمثل أمريكا التي لا تبخل بعلومها على أحد..؟ وصدق حدسى حين اتصل بى فى اليوم التالى المستشار الإعلامى فى السفارة الامريكية يبلغنى دعوة السيدة جيبسون لتناول الشاى فى منزلها ولم يكن وجود البروفيسورر الأمريكى وليم مارتن الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد مفاجأة لى..

فقد علمت أن ثلاثة علماء آخرين من الحاصلين على جائزة نوبل فى الاقتصاد موجودون في باريس التى بدت وكأنها كعبة رجال الاقتصاد..!!

لم تكن مكتبتها كما أوحت لى فى حفل السفارة غنية بكتب القوى الخفية.. فقالت مبررة..

ـ الدبلوماسيون كما تعلم لا يحملون كل أغراضهم فوق ظهورهم وهم ينتقلون بين عواصم العالم..!!

إلا أنه شد انتباهى كتاب حديث عن ظاهرة التليكنسيس للبروفيسور الأمريكى دونالدتيرنر.. ولاحظت اهتمامى به فقالت معلقة: ـ صدر منذ أسبوع فقط.. لدى نسخة أخرى فى السفارة ..يمكنك أن تحصل على هذه ..

عبرت لها عن امتنانى.. وقلت إنه يمكننى شراؤها من مكتبات باريس .. لكنها ألحت.. وسألنى البروفيسور وليم مارتن إن كان هذا ممكنا..؟ كان يعنى التليكنسيس ..فقلت بثقة: نعم

وسألت السفيرة: هل بمقدورك هذا..؟

ـ الآن ..؟! تمتمت فى دهشة.. فسارعت السيدة جيبسون قائلة.. ربما لتزيل ما تظنه حرجا..

ـ لا .. ليس بالضرورة .. إن كنت غير مستعد..

قلت مفسرا: ـ ليست مسألة استعداد سيدتى.. لكن الأمر مرهق.. ربما لو قرأت كتاب دونالد ترينر لعرفت ذلك.. إلا أننى لاحظت سحابة من الشك.. في عينى البروفيسور .. فقلت مبتسما..

ـ ومع ذلك.. لم لا ..!! هه.. مـاذا تريدان أن أحـرك..؟! ثم أردفت ضاحكا:

ـ أرجو من سيدتى السفيرة ألاتطالبنى بنقل الزعماء المشاكسين فى العالم إلى سجون واشنطن لتأديبهم.. هذا ليس فى مقدورى..

قالت فى ابتسامة مفتعلة:

ـ لا عليك من هؤلاء بروفيسور منذر ..نحن نعرف كيف نتعامل معهم.. فماذا لديك غير هذا..؟!

قلت وأنا أخطو نحوها: ـ سوف ترى سيدتى ما لن تنساه أبدا.. لكن أستأذنكما فى التزام الصمت التام..

شىء من الارتباك يحبو على قسمات وجهها.. بينما يداى تتحركان

فى مسارات دائرية فوق رأسها.. بدأت قبعتها ترتفع .يداى تواصلان الحركة فوق القبعة.. تجذبها في تركيز شديد بعيدا عن الرأس .. تراجعت ببطء إلى أن جاورت الطاولة الصغيرة.. فجأة سحبت يدى من فوق القبعة فهوت فوق سطح الطاولة.. ألقيت بجسدى المتهالك فوق المقعد .. وأذناى تلتقطان بصعوبة كلمات البروفيسور مارتن: لاأصدق .. لم أر هذا من قبل.. لكنك تتصبب عرقا..!!

بينما فزعت السيدة جيبسون من مكانها وهى تردد

- بروفيسور منذر.. هل أنت بخير..!!

تطلعت إليها وأنا أكابد لأجد مكانا للحروف بين أنفاسى المتلاحقة: - لا تقلقى يا سيدتى.. هذا أمر طبيعى!!

صبت لى كوب عصير.. تناولته بأنامل مرتعشة.. فقال البروفيسور مارتن.. - لم أكن أظن أن الأمر مرهقا إلى هذا الحد..!!

قلت .. وقد بدأت أنفاسى تعاود وتيرتها..

- لا أظن أن جهدا بشريا يعادل فى قوته ما يمكن للمرء أن يبذله فى حالة مثل هذه..

قالت السيدة جيبسون

- بدوت وكأنك تكثف كل كيانك فى نظراتك المصوبة نحو رأسى

سألتها فى اهتمام: - هل شعرت بشىء غير مألوف؟

قالت في حيرة:

- نعم.. قليل من الصداع.. أفكار قديمة راودتنى.. ذكريات .. مرحلة الطفولة.. أشياء كثيرة كانت تحدث خلال تركيزى معك..

- لو ثمة أجهزة لقياس النشاط الكهربائى فى رأسى لسجلت ارتفاعا جنونيا فى هذا النشاط .. هذا بالضبط ما حدث حين أجرينا هذه التجربة على العراف الروسى ميخائيل اندروف.. بل إن قلبه كان يخفق بسرعة مئتين وأربعين مرة في الدقيقة

رد البروفيسور مارتن فى ذهول:

ـ أربعة أضعاف السرعة العادية..

ـ علميا كل مادة حية محاطة ومسيرة بتأثير حقول تشابه الحقول الكهربائية.. هذه الحقول المغناطيسية قد تكون قوية لدى بعض الناس مثلما هو حال العراف الروسى ميخائيل أندروف الذي علمنى التليكنسيس وهؤلاء ربما ليسوا فى حاجة إلى هذا الجهد الخارق الذي يبذله مثلى حقوله المغناطيسية فوق المتوسط..!! تساءلت السيدة جبيسون فى اهتمام:

ـ أهذا يعنى أن كل إنسان يمكنه أن يفعل ما فعلته..؟!

قلت: ـ بالتدريب المستمر على كيفية تسليط قوى الدماغ لزيادة طاقة حقوله المغناطيسية.. وأردفت مبتسما:

ـ أظن أن المخابرات الأمريكية على علم بموضوعنا هذا

ـ وما علاقة المخابرات بمثل هذه الأشياء؟

تساءل البروفيسور مارتن فى دهشة:

ـ لأن الروس يبدون اهتماما كبيرا بهذا الأمر.. كيفية تأثير الذهن على حقول القوة.. إنهم مهتمون بإيجاد آلية تمكن الذهن البشرى من تحريك الأشياء عن بعد.. وأظنهم حققوا بعض النجاح..

قالت الصغيرة فى لكنة تشى بشىء من اللؤم :

ـ يبدو أن للبروفيسور منذر أصدقاء فى موسكو..؟!

قلت بامتنان: ـ بعض العرافين أساتذتى وأصدقائى..

قال البروفيسور مارتن ضاحكا:

ـ لو نجحت أنت وأصدقاؤك الروس فى تطوير هذا الشىء الغريب تسدون بذلك أعظم خدمة للاقتصاد العالمى..نقل السلع والبضائع بدون سفن وموانىء وطائرات .. هذا سيوفر الكثير من النفقات..

وقالت السيدة جبيسون وهى تتطلع إلى قبعتها فوق الطاولة

ـ لا أحد فى أمريكا يقدر على ذلك..

قلت مبتسما: ـ مع أننى مدين بعلمى والكثير من قدراتى لأمريكا.. إلا أننى استأذن سعادتك فى ألا أفوت هذه الفرصة.وأبدى زهوى لكون لدينا

شيء نحن الصغار.. ربما ليس لديكم..

فقالت بلكنة حاولت أن تحشدها بالصدق:

- بل لديكم ما هو أكثر من هذا بروفيسور منذر.. مسألة تحويل الدول إلى شركات.. هذا إنجاز تاريخي.. بل أظنه الأهم منذ عدة قرون..

نطقت العبارة الأخيرة وهي تتطلع إلى البروفيسور مارتن طلبا للتأييد ..فأومأ الرجل موافقا.. لكنه تساءل:

- هل تظن بروفيسور منذر أن المناخ لديكم مهيأ لمثل هذا المشروع الفريد..؟!

قلت : - ربما الرئيس وروما نسيو الستينيات وحدهم المعارضون بجدية.. لكن الرصاصة انطلقت ولا أحد يقدر على أن يقف في طريقها..

ثم أردفت وأنا أتطلع إلى السيدة جيبسون:

- أظن أن التحدي سيكون ما بعد اتخاذ القرار.. هل سننجح..؟ التجربة تتجاوز طاقتنا..!!

وكأنني ألقيت إليها بخيط.. تعقد فيه حبات أفكارها.. فقالت مبتسمة:

- أتفهم مخاوفك كأحد أبناء الستينيات الرومانسيين..! ثم أردفت وهي تنظر إلى البروفيسور مارتن: أظن أنهم في حاجة إلى مساعدات خارجية..!!

فقال البروفيسور وهو يتطلع نحوي:

- المشكلة أنه لا يوجد أحد في هذا العالم يملك خبرة سابقة ليقول لكم بيقين إفعلوا هذا ولا تفعلوا ذاك..

وعلقت السيدة جيبسون:

- هذا صحيح.. لكن أعتقد أن واشنطن وصندوق النقد يمكنهما تقديم الكثير في هذا الشأن ..تقديراتنا تقول إنكم ستكونون في حاجة إلى ٤٠ مليار دولار في السنوات الأربع الأولى من عمر التجربة.. واشنطن لن تتوانى عن توفير معونات وقروض ميسرة بهذا الحجم..نحن معنيون جدا بالفكرة لأن نجاحها قد يدفع واشنطن لأن تتساءل في جدية: طالما الأمر هكذا.. لم لا نكون الدولة الثانية..؟

نقلت ما سمعته فى بيت السفيرة الامريكية إلى أقطاب المعارضة فى باريس .. انصتوا باهتمام لما أقول .وعلق رفقى:

ـ يبدو أن الأمر جاد.. ليس مجرد فرقعة صحفية من قبل كاتب

وقال سليم صيام: ـ أرقام الأمريكان دائما نتاج دراسات جادة..

فقال عبد الطيب: ـ الدراسات لاتتم بين يوم وليلة.. هذا يعنى أنهم عاكفون على متابعة الأمر منذ زمن ..

فقلت: ـ أظن أن واشنطن يعنيها تماما نجاح التجربة.. وهذا في حد ذاته ضمان نجاح..

كانت عيناى مسلطتين على ما وراء نظرات سليم صيام لمحاولة استقراء الداخل .. وواصلت:

ـ تجربة اليابان الاقتصادية نجحت من قبل ومعها تجربة أوروبا الغربية لأن واشنطن أرادت ذلك..

وعلق رفقى: ـ أظن أن واشنطن لاتضخ كل هذه المليارات فى تجربة لاتضمن لها النجاح..

فقال سليم صيام بغموض : ليس النجاح وحده ما يعنينى!!

فاحت كلماته برائحة شواء الداخل المرهق من مكابدة استقراء المجهول .وباح لي مرة بعد ذلك بهواجسه..

ـ خضنا هذه الحرب ليكون لنا صوت فى مطبخ القرارات.. فهل من الحكمة أن نستبدل تسلط حكومة رمزى بتسلط آخر من وراء البحار..؟!

قلت: ـ لكن لا أحد يتسلط على أوروبا أو اليابان.. اقتصاديا أعنى.. بل ثمة حرب تجارية بينهما وبين أمريكا..

غاص فى لجة حيرته الصامتة .. أما أنا فتقاذفتنى أمواج الدهشة مما أفعله..؟ لكنها دهشة مخدرة.. عاجزة.. لم تنته أبدا بصرخة لا .. لا تستمر .. خير لك أن تصارحها بالحقيقة..

لم أصرخ..بل وجدتنى أضغط على أرقام الهاتف.. وأطلب من السيدة جيبسون موعدا لأعيد إليها كتابها.. معبرا لها عن امتنانى.. فمنحتنى موعدا فى صباح اليوم التالى.. ليس لأنها متلهفة على عودة الكتاب الذى قالت لى من قبل إنه هدية.. بل لأنها تمكنت من قراءة ما أبطن.. نقلت إليها قلق سليم صيام.. وقلت في نفاد صبر : - الجميع قلق.. وحين أقول الجميع فلستم استثناء..أنتم أيضا لكم مخاوفكم.. فلماذا لا تجلسون سويا.. ويطرح كل طرف ما لديه..؟!

تساءلت فى دهشة منفعلة:

- اقتراح البروفيسور منذر هذا أم اقتراح الجماعة؟

وددت أن أقول لها إنه اقتراح الشيطان.. بل إن ما يجري كله بفعل الشيطان.. وأنا .وهم .. جميعنا ممثلون مختارون بعناية من قبل الشيطان.. لكننى قمعت انفعالى وقلت بهدوء..

- ربما كان اقتراحي.. ولا أظن أن الجماعة ستعترض عليه..

- سأتحدث مع واشنطن فى الأمر.

فى صباح اليوم التالى خابرتنى بما تلقته من واشنطن: لا مانع.. وليكن الاجتماع فى منزل سليم صيام في باريس.. ستة فقط من المعارضة يحضرونه.. سليم صيام نفسه.. رفقى المنياوى .. عبد الطيب رمزى، الشيخ التميمى، وجدى الحناوى.. وأنا ..

وتساءلت فى سريرة نفسى فى ساخراً: - إن كانت واشنطن تحدد منذ البداية من سيلعبون معها .. فهل يمكن بعد ذلك كبح شهوتها فى التدخل .. بل والسيطرة على زمام الأمور..؟!

عقد الاجتماع.. وفاض وجدى الحناوى فى سرد التاريخ الامبريالى لأمريكا.. استمعت إليه السيدة جيبسون بصبر مدهش.. بينما أسهب التميمى في شرح موقف ديننا الحنيف من السلام والتعاون مع الآخرين..

أما سليم صيام فأوجز مخاوفه.. وفى الحقيقة كانت مخاوفنا جميعا..

- هى تجربة للعالم كله.. نجاحها سيعود بالخير علي الجميع.. لكن إن

فشلنا .. فهو دمار لنا .. وحدنا .. وربما استفاد الآخرون من هذا الدمار حين يدرسون التجربة باحثين عن عوامل فشلها .. نحن ندرك ذلك جيدا.. ومع ذلك مستعدون لخوضها .. بشروطنا نحن..!! نقبل المساعدة من الآخرين..بل نطلبها ونلح عليها .. دون أن تذيل هذه المساعدة بأوامر بما ينبغي أن نفعله..

وقالت السيدة جيبسون كلمة واشنطن التي بدت وعدا..

ـ من مصلحة أمريكا أن تكون تجربتكم مثالا يحتذى به الآخرون.. أمريكا ليست كالنعام تخفي رأسها في الرمال.. نعلم أن ثمة شعورا عدائيا تجاه واشنطن في الكثير من دول العالم الثالث.. لهذا لا نريد أن نتدخل في تجربتكم حتى لا يزداد توجس الآخرين نحونا.. فقط سنكتفي بتقديم المساعدة المادية والخبرات والمشورة إن طلبتموها..

نقلت ما قالته السيدة جيبسون إلى رئيس جمعية القوى الخفية الفرنسية.. وأردفت ضاحكا:

ـ أخيرا عرفت أمريكا ألا أحد يطيقها في هذا العالم..

فقال الرجل وعلامات الجدية ترتسم على وجهه:

ـ لا تصدقوهم إن قالوا لكم إنهم لن يتدخلوا في شئونكم .. أمريكا أسوأ ديكتاتور عرفته البشرية.. لن يتركوكم في حالكم..

نظرت في وجهه متفحصا .. فقال الرجل:

ـ سأوفر عليك تعب قراءة ما أخفي .. صديق في المخابرات الفرنسية أخبرني أن عملاء المخابرات المركزية كانوا وراء التفجيرات التي شهدتها بلادكم مؤخرا .. بالطبع الهدف واضح.. الضغط على الرئاسة وتعجيل قبولها بفكرة الشركة..

ولا أظن أن منطق الأحداث يتنافر مع هذا.. وما كان هذا ظني وحدي.. بل ظن رموز المعارضة.. ومع ذلك كابدوا في الهجوع بين كلمات السيدة جيبسون في استئناس ..لأنها أسمعتهم مايريدون سماعه.. فيشهرونه في وجه معامل الوساوس دواخلهم..!!

وشعرت أن سليم صيام ورجال الأعمال أصبحت دواخلهم أقل موارا.. ربما لأن الذاكرة طفحت بين يدى كل منهم حقيقة أنه رجل أعمال.. وطنه حيث تعمل أمواله.. فإن انحسرت المساحات تحت أقدامه.. فما أكثر الأوطان التى تمنح جنسيتها لمن يطرق أبوابها وعلى ظهره خزائنه.. لهذا لا أستبعد ألا يلقى سليم صيام ورجاله بالبيض كله فى سلة الشركة..

لكن الأمر يبدو مختلفا مع رجال الأحزاب.

فالسياسة لافتتهم التى تفقد صلاحيتها إن حملوها معهم إلى أوطان أخرى.. بل إن لافتة وجدى الحناوى قد نضب بريقها في كل الأوطان.. واجهته بذلك خلال محاولاتي لإقناعه بقبول مشروع الشركة.. وقلت له إن قبول الفرقاء به فى قسمة الغرماء .. كرم منهم .

نطقت العبارة بسخرية لم يبال بها حيث قال في هدوء مشوب بالثقة.:

- عهدى بك عراف ماهر.. تدرك ما لا ندركه نحن.. لكنى أراك الان تردد ببغاوية ما يردده الآخرون.. الشيوعية يا صديقى حتما سترجع..العالم مقبل على طوفان هائل.. والشيوعية هي سفينة نوح.. لا مفر ..!!

قلت: - وإلى أن يأتى النصر الذي لا ريب فيه أليس من الأجدى أن نفعل شيئا مفيدا.. بدلا من الانتظار..!!

قذفنى بنظرة ساخرة ثم قال:

- الشركة تعنى ..؟! ثم أردف دون أن ينتظر ردي : اسمع.. تحويل البلد إلى شركة هو أبشع صورة للعولمة.. والعولمة يا صديقى بحر هائج أعمى.. لن يفرق بين سفينة ترفع علم كوبا الشيوعية وأخري ترفع علم الفاتيكان.

- إذن ..؟!

واضطررت الانتظار عدة أيام حتي يجيبنى على «إذن» هذه.. وكنت أعلم أن «لا» التى يلوح بها بلا جذور في الداخل المشتعل بالقلق .. إنه يعلم أن من لن يشارك.. فمكانه خارج الزمن.. ومثله عاش نجما في كل

زمن.. يهلك لو تجاوزه الزمن، وبدا في لقائنا الأخير الحاسم مرهقا فكريا.. ورسالة تطل من عينيه إنه مستعد للاستماع.. فحاصرته وما كان حصارا عاديا.. بل حشدت ادراكي الحسي العالي وضخخت فيه أفكاري

- كان يعجبني فيك إخلاصك لقضيتك.. ومايقلقك الآن أن يهتز احترامك للمناضل وجدي الحناوي إن قبلت.. فالقبول تنازل.. ربما كان كذلك.. لكن الغريب أنه مرحلة جديدة من نضال وجدي الحناوي من أجل البسطاء، بل إنه انجاز في هذا الطريق..

كانت عيناه مثبتتين في عيني وأظن أنه ما كان يراني.. والرأس تقلب ما أبثه.

- الشيوعية تدعو إلى ملكية الشعب لأدوات الانتاج.. أليس كذلك.. الشركة يمكن أن تحقق هذا..

وانفرجت كوة ضوء في دماغه حين بدا وكأنه يفكر بصوت مسموع :

- إذن ينبغي أن تكون أغلبية الأسهم للشعب..

- يجب أن نتمسك بهذا يا حناوي

وكانت تلك إحدى مزايا ضخ الأفكار بواسطة الإدراك الحسي العالي.. حيث تظن رأس المستقبل مع الإلحاح على أنها أفكاره هو.. ولا يواتيه الشك أبدا أنه تعرض لغزو فكري من دماغ أخرى علي درجة عالية من الإدراك الحسي.. وما كان الشيخ التميمي في حاجة إلى أن أمارس معه ذات اللعبة.. فقد بدأ أقل صلابة حين أظهر رجال الأعمال والحناوي لينا إلا أنه لوح بمعارضته للشركة إذا لم يتم وضع قائمة بالأنشطة المحظورة التي تتعارض مع الدين .. وصاح خلال جلسة في بيت سليم صيام: أقولها للجميع من الآن.. لا خمور ولا سياحة ترتكب فيها الفحشاء..

ولم يعلق أحد.. حتي سليم صيام صاحب توكيلات أربعة من أشهر أصناف الخمور في الدولة.. كان همهم الوحيد.. الموافقة علي مبدأ الشركة.. أما كيف.. وما ينجم عنها من مشاكل ..فأغمض الجميع عيونهم.. أملا لحلها عند التوقيع ولو بطريقة هذا لك وذلك لي..!!

وحده عبد الطيب الجدير بالشفقة
إنه لا يعى ما يحدث حوله.. يرى ولا يرى.. يسمع ولا يسمع.. كأن أحدا نومه مغناطيسيا ونسى أن يعيده إلى وعيه.. فإن كان لديه قدر من الوعي.. فهو وعي المنبهر ببريق نيزك يلمع في السماء دون أن يدرك أن هذا النيزك يشق طريقه إلي الأرض ليدمر كل شيء..!! وحين اقترحت فى إطار لعبة التوازنات أن يكون هو رئيس مجلس إدارة الشركة.. ولقي اقتراحي ترحيبا جماعيا.. نهضت واحتويته بين ذراعى فى شفقة..أبى إلا أن يقرأها تهنئة بمنصبه المهم..!!

وهل أنا الذى أقول هذا..؟! فلماذا كنت المبدع والمبارك والمحرض لصبية هذا البلد وأفاقيها حتى يلهوا بجسد الأم..؟! أهو لهو هذا الذى بدأته.. ألا يمكن أن يكون بزغة فجر خير وسلام للبشرية..؟!

ياإلهى..

أما زلت أطرح أسئلة السراب..؟ فلماذا لا أواجه نفسي.. وأصرخ أنى بالقديسة لهوت.. ودعوت إلي فراشها ذئاب الداخل والخارج..؟!

ربما كنت أنت سيدتى السبب.. وربما هذه ليست في منتصف محيط الحيرة الموجعة ما بين ضفتى النفى واليقين.. بل أراها الآن إلى ضفة اليقين أنزع..

أما كيف ..؟ فليتك تعودين معى إلي البداية.. أتذكرها جيدا.. فمازالت المعلم الجلي في الذاكرة..

كان ذلك فى منزل رجل الأعمال الراحل نادر صيام.. الثرى الذى «أهدر» ثروته فى مشاريع خاسرة من أجل الفقراء الكسالى. «ليست عبارتى تلك سيدتى بل عبارة سليم صيام الذى وصف بها غباء أخيه الراحل خلال حديث جمعنا في باريس حول دور الرأسمالية الوطنية» فى تلك الليلة كنت كعادتى ..من المبكرين بالحضور «ربما بقايا الخجل القديم كانت تدفعنى إلى ذلك» كى أخلق ونسا مبكرا مع اثنين أو ثلاثة.. من المبكرين مثلى.. إلى أن هللت بصحبة زوجك الذى كان عضوا في

المجلس الوطني..

احتويت المكان بنظرة ساحرة .. لم تكن نظرة.. ابتسامة بدت وهي تشع من العينين وكأنها فيض توحدت في نوره كل شموس الكون..

وانتابتنى رجفة ويدك تنام في كفى دهرا.. لحظة أن كان صاحب البيت يقدمنى إليكما .. شعرت وكأن ماديتى تلاشت لتنبسط روحى.. احساسا لا نهائى بالحياة يسبح فى فيوضات من جمال أنثوى نادر.. بل أوحد، ظننته للوهلة الأولى انبثاقة من مجهول الموت تغشانى بأثيرية نسرين زهدى.. لكننى حتى قبل أن تبرحني الوهلة الأولى أدركت أن نسرين زهدى لم تكن سوى بيت شعر جميل فى قصيدة الجمال الإنسانى.. وكنت أنت كل القصيدة.. تتدفق أبياتها من نهر عينيك تراتيل غامضة يهتز لوقعها القلب دون أن يدركها.

« كم أود أن أراك وأنت تقرأين سطورى تلك.. فما أجمل السباحة في شهقة دهشى تنبثق من عينين امتزج فيهما ضى القمر بدفء شمس صباح شتوى..!!

نعم سيدتى.. هكذا رأيتك.. ورؤية العراف استبصار، واستبصار العراف يقين..!

فإن كنت أنت لست كما استبصرك العراف.. فبعدك لايقين..!!

فى شوق أنت الآن لمزيد من التفاصيل .. أليس كذلك.. ؟! سأمنحك ما تريدين .. ليلتها ..تتذكرين .. طلب منى نادر صيام أن أخاطره «تليباثى» اضطربت ..

كيف أعيد تشكيل خلاى رأسى المنثورة بين أبيات القصيد لتقذف بأشعتها فى دماغ نادر صيام..؟!

وانتابنى خاطر مفزع .. ماذا لو قرأ الرجل أنى بك مسكون .. وأنى فى سكينة كونك تسبح خلاياى..؟!

وكادت دهشتى تنفجر صراخا.. نادر صيام هو أيضا بك مسكون.. وكان مضطربا.. دماغه متخمة بك.. بالتساؤلات حولك.. وأظنه كان ..

مات دون أن يبوح.. !! وكم رجل فى هذه الأمة مات وهو مسكون بك دون أن يبوح.. وكم حى سيموت أيضا دون أن يبوح!

كانت تلك أشق عملية تخاطر أجريتها فى حياتى.. ولولا أن «نادر صيام» كان علي قدر هائل من الشفاهية.. بل بدا مثل كائن حى من خلية واحدة.. لولا ذلك لما تمكنت من اختراق رأسه فى تلك الليلة..!!

ولم أبح له.. فقط قلت : إنه مشغول علي صحة والدته المريضة.. وما كنت أعرف أنها مريضة.. وذكرت له بعض التفاصيل الخاصة بمرضها والراسية في قرار ذاكرته.. رمقنى فى قلق .. فطمأنته : لا شىء آخر..؟! صدقنى.. ألا شىء آخر فى الدماغ.. وربما ظن أن سلوى المنياوى تسكن فى ذاكرة مسحورة بداخله .. لن يصل إليها العراف منذر عبد المهيمن..

ومع أننى لم أفاجأ بزيارتك لى بعد أسبوع حيث الجميع عادة يفعلون هذا .. فلا أحد لا يقلق من مجهول الغد.. ومن الطبيعى أن يطرق باب عراف رأى منه دلالة صدق».. إلا أننى كابدت كى أقمع مشاعرى المهووسة بالفرحة.. جئت تسألين عنه.. عما تحمله له الأيام.. وكان الأمر شاقا .. كان لدى اعتقاد أن مجهول التسعين فى المئة من قدراتنا الدماغية يحتوي على شىء يتعلق باستبصار المستقبل.. ليس تنبؤاً أو مشاركة العلى القدير في قدرة العلم بالغيب .. لكنها قدرة تتعلق ربما باستقراء ما حدث وعبر الإدراك الحسى العالي يمكن استبصار ما سيحدث .. ومالم أقله لك من قبل إننى منذ ليلة نادر صيام عكفت على دراسة شخصية زوجك وبعض السياسيين من المشاركين فى صنع القرار.. وطبيعة العلاقات بين القوى المسيطرة على البرلمان .. وبدا لى أن شمس الصباح سوف تلقي بشباك أشعتها لتحمل رمزى وتضعه فى كبد سماء الوطن..

حين قلت لك ذلك زغردت عيناك بنشوى الأمل.. وما كان بعيد المنال.. تتذكرين تلك الفترة جيدا حين لازم الزعيم عبد الطيب حسن النوايا فراش

المرض.. وحين شل اليأس قدرة الأدمغة على التطلع إلي المستقبل.. كان عضو البرلمان رمزي وبعض رجاله الأكثر يقظة، وأصبح رجلك رئيسا للبرلمان.. وطبقا للدستور أمسك بمقاليد الحكم حين رحل الزعيم.. وثبته استفتاء شعبى بعد ذلك علي سدة الحكم..

لهذا طرقت بابى بعد ذلك مرارا لأننى حملت لك البشارة في وقت كان الجنين مايزال يتكور في رحم المجهول.. ولا أدرى.. هل تصلح كلمات الشاعر الفرنسى لتكون عنوان فجيعتى ..!! هذا الشاعر الذي لا يحضرنى اسمه الآن. قال : قليل من الحب أفضل.. فربما لو إنحسرت تخوم مملكة حبى لك.. لأعنتك أكثر كعراف.. وأعنت البلد الذي تحبين وأحب .. لكن أنهاري فاضت حبا مدمرا..

وما كان لى مأرب في تحويل الوطن إلى شركة.. لو كنت شرها للسلطان مثل راسبوتين لأغويت شباب الأمة وسقتهم نحو قصر الرئاسة حاملا كل منهم كفنه علي كفيه إما أن يدفن هناك أو يعود إلىّ بمفاتيح الرئاسة.. فإن فشل الشباب فلن أكون فى براءة سقراط وأتجرع السم رافضا عرضا مغريا للفرار، كنت سأحاول ثانية وأحرض النساء علي الرجال ليأتوا إلى بمفاتيح قصر الرئاسة والبرلمان.. وكل القصور المهمة في هذا البلد...

لم يكن سلطان السياسة مأربى.. بل سلطان العلم .. إلى أن ألقى بى قدرى فى كونك الجميل .. فأصبح حلمي أن أستنشق زفيرك.. أكسير حياة..!!

فكان زفيرى سما زعافا خشيت عليك منه..

وأتذكر أننى حين كنت أتخبط فى سراديب انهيارى المدفوع إليها بيأس عجزي عن البوح لك.. عن التماس معك.. فعلتها مع من يملك مستندات مدعمة خاناتها ببيانات مدموغة بوهج النجوم.. هل تتذكرين تلك المرة التى طلبت مني أن أحضر روح والدتك ..وفشلت؟! وفى حضرتك دائما كانت ترتبك معادلاتى الكيميائية.. كان اليوم التالى لجلسة الفشل

تلك.. موبوءا بلحظة انهيارى التى بدت كانفجار هائل نثرنى شظايا شر في كل الأيام التالية.. وفي اليوم التالى طرقت بابى عالمة الفيزياء الحيوية الشهيرة نجيبة الكمالى .. بالطبع تعرفينها .. كانت فى شك من أن إنسانا ما يمكن بما لديه من إدراك حسى فائق.. أن يسيطر على دماغ ويمحو ما فيه ثم يعبئه بما يريد من أفكار .. وقلت لها إننى أستطيع أن أفعل ذلك الشيء معها .. وعبر فكرة واحدة.. سألتنى بتعال : ما هذه الفكرة التى سأودعها في رأسها .. فقلت: إن وافقت ستعرفين !!

وسرعان ما عرفت .. انفجرت الفكرة ذهولا ممزوجا بالاستنكار في عينيها.. لم أتراجع ..ألححت .. غرست فى رأسها أشجارا من الغواية لا تقاوم ..لوحت لها بكينونتها الرومانسية التي قهرتها سنينا عديدة كى لا تعيق رحلتها في معامل الفيزياء ، دغدغت فيها مراكز اللذة بالمجد الحسي الذي ينتظرها .. وسوست لها بلذة الجنس الأثيرى..إن أطبقت جفنتيها فى استسلام ..

كانت حربا شرسة هجعت بعدها علي صدرى برأس مرهقة.. وجسد يترقب..!!

تلك كانت شرارة الشر الأولي التي تطايرت من دماغ ارتبكت معادلاته حين فشل فى السيطرة علي قلب يرنو إلى أنثى موطنها في العلياء.. لكن ظلت المسافات بينى وبينك مستعصية وظل مشروع انصهار شطرى فى شطرك لتشكيل أعظم اتحاد إنسانى حلما مستحيلا .. ما سعيت أبدا ليكون.. رغم موار الداخل الذى توحش عواؤه في لقاءاتنا الأخيرة.. هل تعرفين لماذا..؟

لأنك سلوي المنياوى غشاء بكارة هذا الوطن.. ولأنك زوجة رمزي المهجوس بآلام الأمة.. والذى أحبه..

ألهذا كانت الشركة..؟! ألأحميك من موار الداخل الأعمى فى لحظة انهيار كبرى عتمت فيها البصيرة فسقت الوطن كبش فداء..؟!

فى هذه المرة لن أجيب بلا أدري..

فببصيرتي .. بصيرة العراف البروفيسور منذر عبد المهيمن ..أرى عبر شاشة التلفاز الآن بلادى تذبح كالشاة

ولأنني كنت العراب.. ينبغى أن أرحل..!!

ملحوظة:

إن جاء في تقرير الطبيب الشرعى أننى لم أمت فورا .. وإنما ظللت أنزف وقتا طويلا حتي فارقت .. فرجاء إبلاغ ذلك لأخيك رفقى كى يرفع من مستوى الجودة فى مصنع الأسلحة الذى يملكه وأهدانى من إنتاجه هذا المسدس الملقى بجوار جثتى قائلا: إنه فخر صناعتنا الوطنية..!!

و صية..

آمل أن يبدى إبنك عبد الطيب وخاله رفقى باعتبارهما من نجوم زمن ما بعد رمزى اهتماما بمركز أبحاثى فلا يغلق بعد رحيلى.. أو يحول إلى مزار سياحى يؤمه عشاق الرقيق الأبيض والأطفال .. كما اقترح على مازحا سليم صيام في باريس .. وسبب قلقى أننى أعرف فرسان الزمن الذى بدأ جيدا، فمزاحهم صباحا يتحول إلى مشاريع مساء طالما أنها تضاعف الأرقام فى أرصدتهم!!

شهقة أخيرة..

أحبك..

منذر عبد المهيمن

١٥/مايو ١٩٩٩

نبذة عن المؤلف

* أصدر ثلاث مجموعات مجموعات قصصية، هي:

١- الرقص على الرأس

٢- هموم إمرأة متمردة

٣- زمن الجنرال

* اختيرت قصته «أحلام الموتى» كنموذج للقصة المصرية الحديثة للنشر في كتاب «القصة القصيرة فى ١٨ بلدا عربيا» إصدار مركز الأهرام للترجمة والنشر عام ١٩٩٣م.

* حصلت روايته «عائلة صابر عبد الصبور » على المركز الأول في مسابقة نادى القصة عام ١٩٩٦. وصدرت عن اتحاد الكتاب عام ٢٠٠١

* حصلت روايته «الخليفة» على المركز الثانى فى مسابقة الشارقة للإبداع العربي عام ١٩٩٨.

تحت الطبع:

* هذيان علي هامش شهادة وفاة حبيبة « رواية»

- توأم سيامى « مجموعة قصصية»

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)